فى تاريخ الأدب العربى (٦)

طرفة المؤتنس فى أدب الأندلس

بقلم

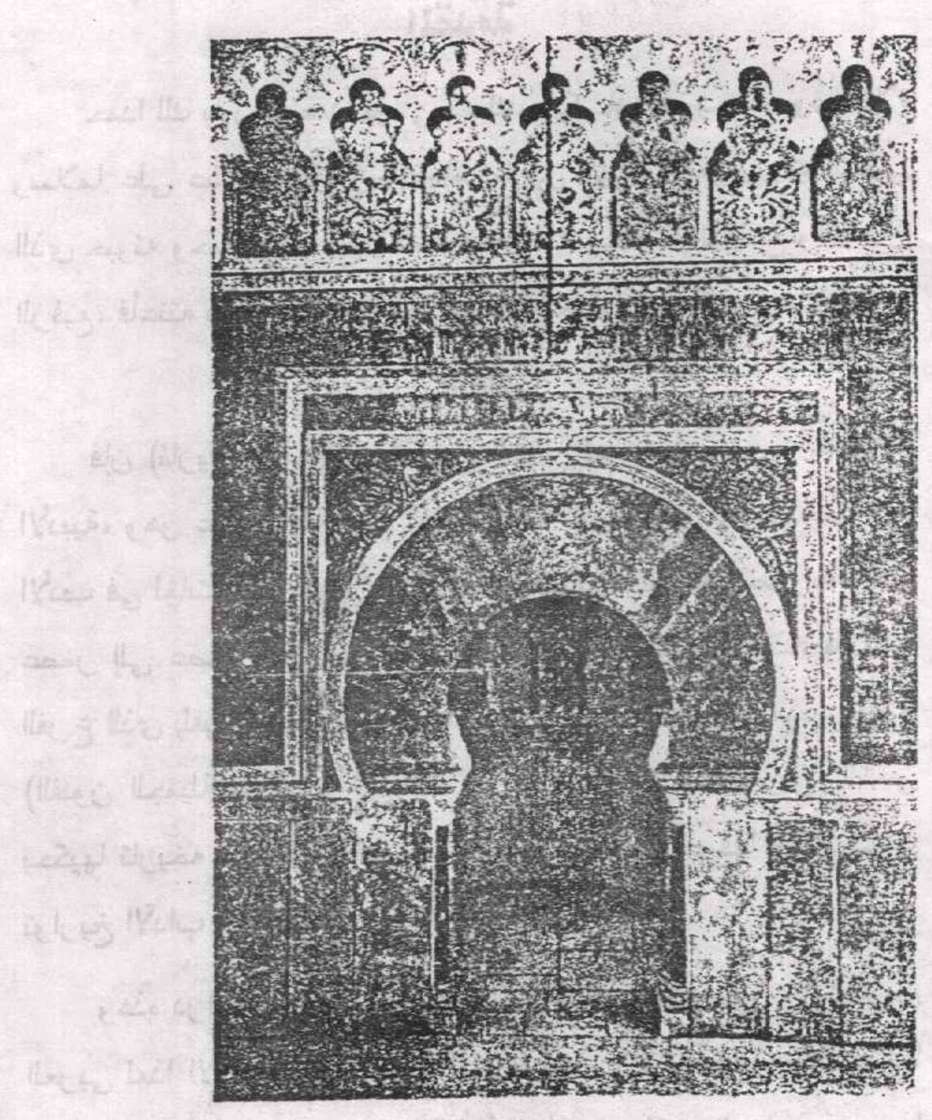
دكتور / محمد عبدالمنعم العربى

أستاذ فى الأدب والنقد

بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ ــــ ٢٠٠٥م



محراب المسجد الجامع في قرطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حمدا لك يا ربنا حمدا يوافى نعمك، ويكافئ مزيدك، وصلاة وسلاما على عبدك وخاتم رسلك (محمد بن عبدالله) العربى الهاشمى الذى حبوته وجملته بجوامع الكلم وخصصته بالقول البليغ والبيان الرفيع، فأعنته بذلك على أداء رسالة الإسلام إلى قومه وسائر الأنام.

(وبعد)

فإن (تاريخ الأدب) من الفروع المهمة فى شجرة الدراسات الأدبية، وهو عظيم النفع، جم الفائدة، لأنه الفرع الذى يتناول ظاهرة الأدب فى لغات البشر فيؤرخ لها ويتتبع نشأتها ونموها وتطورها من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة، واصفا ومعللا ومعلقا، ولأنه الفرع الذى يلقى أقوى الأضواء على (فن الأدب) الذى هو من أروع (الفنون الجميلة)، وأحبها إلى النفوس . وقصة (الأدب العربى) التى يحكيها تاريخه من أمتع القصص، وأغزرها مادة وأعرقها أصلا بين تواريخ الآداب الإنسانية .

وهذه دراسة متواضعة موجزة عن (الأدب الأندلسى) ، والدارس العربى لهذا الأدب تنتابه مشاعر مختلفة تشده إليه وتجذبه نحوه جذبا قويا ، إذ يرتبط فى وجدانه ببلاد (الأندلس)، فتذكره الدراسة بهذا الوطن الجميل وما شيد العرب والمسلمون فيه من أمجاد عظيمة، وحضارة باهرة، ودولة مهيبة، ونهضة سامقة فى كل مجالات الحياة

مما يبعث فى نفسه مشاعر البهجة والفخر والاعتزاز، ثم يذكره بانتهاء هذه الدولة وطى هذه الصفحة الناصعة، فى ظروف مأساوية أليمـــة ، مما يثير فى نفسه مشاعر الحزن والأسى والأسف والحسرة، والعظة، والعبرة.

فهو إذن أدب ــ إلى جانب ما فيه من إبداع فنى متميــز ــ، لـــه مكانة خاصة تنتمى إلى هذه المشاعر الفياضة، والعاطفـــة المتأججـــة الجياشة، وقلما ظفر أدب بمثل هذه المنزلة الرفيعـــة، وحســب هـــذه الدراسة أن تلفت نظر القارئ وتحببه فى (الأدب الأندلســى) الجميـــل العريق ــ ليقرأ عنه المزيد قياما بحقه وإحيــاء لـــذكره، واســتمتاعا بروعته وفنونه.

والله تعالى من وراء القصد ــ نعم المولى ونعم النصير،

الزقازيق ١٤٢٦هـــ ــ ٢٠٠٥ م

الدكتور

محمد عبدالمنعم محمد عبدالكريم العربى

الباب الأول
أضواء على الأدب الأندلسى
الفصل الأول
(فى التعريف ببلاد الأندلس : أرضا وموقعا وتاريخا)

١ـ الشكل والموقع والمناخ :

بلاد الأندلس شبه جزيرة كبيرة تقترب فى شكلها من (متوازى أضلاع)، تحده المياه من كل الجهات ما عدا الجزء الشرقى من الجهة الشمالية — الذى يصلها ببلاد الغال (فرنسا) — ضلعه الأكبر فى الشمال، والأصغر فى الجنوب، والضلعان الشرقى والغربى يكادان يتساويان إلا أن أولهما مائل من أعلاه إلى ناحية المشرق ميلا ظاهرا، مع ملاحظة أن أضلاع هذا (المتوازى) كثيرة التعاريج، بها العديد من النتوءات الضخمة والانحناءات الواسعة، لاسيما فى الأضلاع الثلاثة الشرقية والغربية والجنوبية.

وتقع بلاد (الأندلس) فى أقصى الجنوب الغربى من قارة (أوربا) وتقابلها على الشاطئ الآخر (المملكة المغربية) حيث تقع فى أقصى الشمال الغربى من قارة (إفريقية) ويفصل بين (الأندلس) و(المغرب) مضيق (جبل طارق) الذى يصل بين (البحر الأبيض المتوسط) و(المحيط الأطلسى)، وهذا المضيق المائى هو الذى يحدُّ الأندلس من جهة الجنوب، ويحدها من الشمال سلسلة جبال منيعة أهمها: (جبال البرانس)، ويحدها من الشرق (البحر الأبيض المتوسط) ومن جهة الغرب (المحيط الأطلسى) وبهذا تحتل بلاد (الأندلس) من كرتنا

الأرضية موقعا فريدا متميزا يربط بين قارتين مهمتين، ويطل بسواحله الفسيحة على بحرين عظيمين.

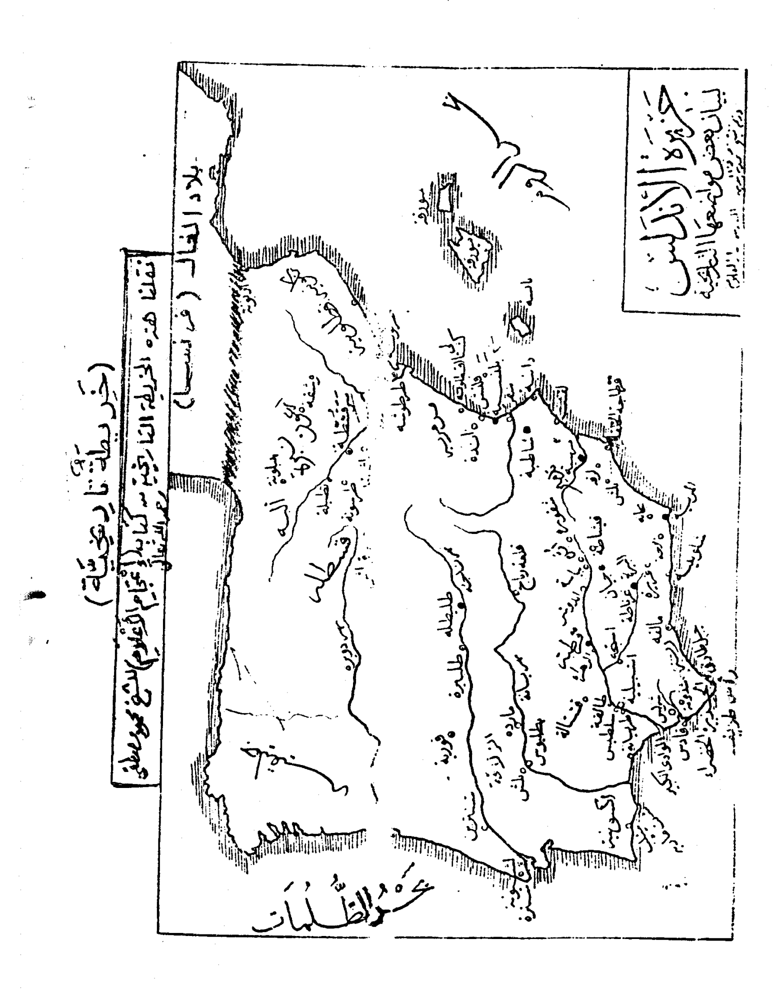
وهى بلاد جميلة المناظر، معتدلة المناخ، طيبة الهواء تتخللها الأنهار الجارية، والسهول الخصبة، والمرتفعات الجبلية الرائعة وكانت تعرف قديما بشبه جزيرة (أيبيريا) ولما ملكها (الوندال) عرفت باسم (واندلسيا) ولما فتحها المسلمون حوروه إلى (الأندلس) أما الآن فما كان يعرف بهذا الاسم يشتمل على دولتين أوربيتين إحداهما كبيرة وهى دولة (إسبانيا) التى تمثل ما يقرب من (ستة أسباع) المساحة الكلية لشبه الجزيرة، والأخرى دولة صغيرة هى (البرتغال) التى تمثل (سبع) تلك المساحة تقريبها على هيئة شريط غربى على (المحيط الأطلسى) [1].

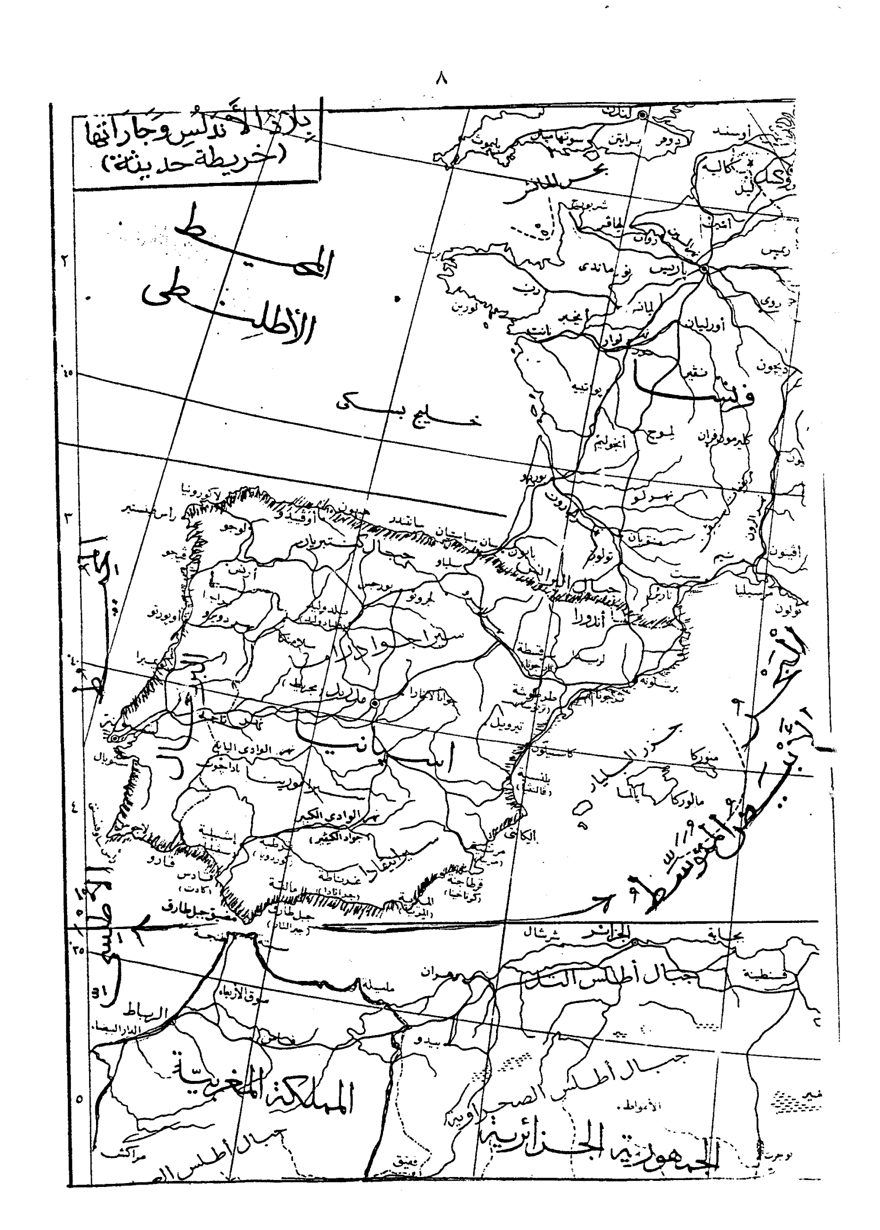
---

(١) انظر خريطتى الأندلس التاريخية والحديثة فى الصفحتين التاليتين.

(خريطة تاريخية)

نقلنا هذه الخريطة التاريخية من كتاب (إعجام الأعلام) للشيخ محمود مصطفى رحمه الله تعالى




بلاد الأندلس وجاراتها
(خريطة حديثة)
المحيط الأطلسي
خليج بسكى
فرنسا
اسبانيا
المملكة المغربية
الجمهورية الجزائرية
جبال أطلس التل
جبال أطلس الصحراوية

الأندلس قبل الإسلام

خضعت هذه البلاد لحكم (القرطاجيين) فى (القرن الثالث) قبل ميلاد المسيح عليه السلام، ثم حكمها (الرومان) القدماء بعدهم لعدة قرون امتدت حتى بداية (القرن الخامس) بعد الميلاد، ثم انتزعها منهم (القوط الغربيون) وهم من القبائل (الجرمانية) [1] المتبربرة[2] التى قدمت من الشمال وأغارت على (الدولة الرومانية الغربية) وغلبتها واستولت على معظم أملاكها فى (أوربا)، وقد حكم (القوط) الأندلس زهاء (ثلاثة قرون) بدءا من عام ٤٠٩م، وظلوا بها حتى جاء العرب المسلمون فافتتحوها وأزالوا منها الحكم القوطى (عام ٧١٠ ميلادية الموافق لعام ٩١هـ)٠

وإذا تجاوزنا أحوال تلك البلاد أيام حكم (القرطاجيين) و(الرومان) ومن قبلهم، فجدير بنا أن نلم بموجز لأحوالها قبيل الفتح العربى الإسلامى أى عندما كانت تحت حكم (القوط)، وذلك للوقوف على السبب الأعظم فى وقوعها بسهولة فى أيدى المسلمين الذين كان فتحهم إياها خيرا وبركة عليها وعلى أوربا كلها كما سنرى فى صفحات تالية بإذن الله ٠

كانت هذه البلاد الواسعة الغنية بخصب أرضها وكثرة مدنها وقراها وامتداد سواحلها، ووفرة خيراتها كانت تحكم من (القوط) حكما استبداديا طبقيا، تنعم فيه الأقلية الحاكمة بكل المزايا ، وبالمناصب،

---

(١) أجداد (الألمان) المعاصرين ٠
(٢) غير المتحضرة ٠

وبالثروة والنعيم، وتعانى فيه الأكثرية المحكومة والشعب مـــن الفقـــر والضنك والذل والاستعباد، وكانت الأقلية الحاكمة المنعمة تتمثل فـــى طبقتين هما:

١- طبقة الأشراف أو (النبلاء) :

وهم من (القوط) الفاتحين ويختار منهم (الملك) وهذه الطبقة فوق المساءلة، وتمتلك قدرا ضخما من الأراضى الزراعيـــة المعفـــاة مـــن الضرائب، وتحتكر المناصب الكبرى فى الحكومة والجيش، وتعيش فى القصور الفخمة والبروج المشيدة.

٢- طبقة رجال الكنيسة :

وهى ذات نفوذ قوى على الحكام تجعلها شـــريكة فـــى الحكـــم، وتمتلك باسم (الكنيسة) مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية المعفاة كذلك من الضرائب والرسوم، ويلحق بهاتين الطبقتين (كبار التجـــار) وهم أقلية ضئيلة، أما أكثرية الشعب فكانت تنتظم الطبقات التالية:

١ - طبقة (التجار) و(صغار الملاك)، وعلى عواتقهم كان يقع عبء الضرائب الباهظة .

٢ - (طبقة الأقنان أو عبيد الأرض)، وكانوا هم الذين يتولون زراعة أرض النبلاء أصحاب الإقطاعيات، وعليهم واجب العمـــل فـــى الأرض طوال العام لقاء ما يسمح لهم صاحبها من غلتها بالقدر الذى يكفل لهم الحد الأدنى من المعيشة . وليس لهم حقوق على الإطلاق بل يعتبرون هم وأزواجهم وأولادهم ضمن ثروة مالـــك

الأرض، فإذا باعها لغيره من النبلاء باعهم معها! ، كأنهم بعض حيوان المزرعة !.

٣ - طبقة الأرقاء: وقد تكونت هذه الطبقة من أسرى الحروب، وكان أحدهم يباع ويشترى، ومهمتهم خدمة ساداتهم فى شتى المرافق وبعضهم كان يعمل فى مجال الصناعات المختلفة لحساب السادة دون أية حقوق . ويلحق بهذه الطبقات أقلية من (اليهود) كانت مضطهدة من أجل عقيدتها المخالفة لعقيدة الأكثرية المسيحية.

ونظام هذا شأنه لا يحقق رخاء ولا عدالة ولا حرية، ولا يفى بمطالب الإنسان الفرد ولا المجتمع البشرى من كفاية وأمن ومساواة بل كان عكس ذلك هو المتحقق.

فالطبقات الكادحة المطحونة سادتها مشاعر التعاسة والإحساس بالظلم والشقاء، وملأ صدورها المقت والكراهية للطبقتين المترفتين لأنهما أصل الداء ، ومصدر البلاء وطبقة (اليهود) المضطهدة لا تضمر للحكم القائم إلا البغض الشديد وحب الانتقام، والطبقتان المترفتان كان يعم أفرادهما التناحر والتحاسد وحوك الدسائس وتدبير المكائد بعضهم لبعض، من أجل اقتناص المناصب والمغانم واكتساب مزيد من المال والنفوذ، كما فشا فيهما الجشع والنفاق، والتحلل والفساد الخلقى والجرى وراء الشهوات وإرضاء النزوات، وممارسة الظلم والتكبر على الضعفاء.

من أجل هذا كان التنافر وعدم الانسجام سمة هذا المجتمع البائس، وكان التناحر بين طبقاته السالفة الذكر حقيقة واقعة ، وإن كانت مختفية وراء بعض الظواهر الكاذبة كالرياء والنفاق كامنة كالنار تحت الرماد، تنتظر اللحظة المناسبة للظهور، وتعمل عملها فى تفكك الأمة وإضعافها، وتؤذن بانهيارها فى وقت قريب.

فالعرب المسلمون الفاتحون عندما جاءوا إلى بلاد الأندلس لم يجدوا أمة قوية متماسكة أو مجتمعا متجانسا متآلفا، مما سهل لهم مهمة الفتح إلى جانب الأسباب الأخرى التى سنلم بها عن قريب إن شاء الله.

الفصل الثانى

الفتح العربى الإسلامى لبلاد الأندلس

١ـ مقدماته :

بعد أن فتحت (مصر) فى خلافة (عمر بن الخطاب) ﷺ تطلع فاتحها وواليها (عمرو بن العاص) لفتح الشمال الإفريقى (ليبيا وتونس والمغرب) الذى كان خاضعا لحكم (الروم) لغرضين: أولهما: تأمين (مصر) من هجمات (الروم) الموتورين والمتربصين على الحدود[١]، وثانيهما : نشر دعوة الإسلام وتبليغها للعالمين، تحقيقا لما وعد الله به المسلمين من نصرة دينهم وإظهاره على الدين كله، واستخلاف المؤمنين فى الأرض، وما بشر به رسول الله المسلمين من فتح بلاد (كسرى) و(قيصر) وما وراءهما، وتحركت كتائب (عمرو) غربا فدخلت (برقة) محققة أهدافها، وبدأ بذلك فتح الشمال الأفريقى وتم على مراحل، على أيدى القادة العظام خلفاء (عمرو بن العاص) (كعبدالله بن سعد بن أبىالسرح)، ومن جاء بعده ولاسيما البطل المغوار (عقبة بن نافع الفهرى) الذى بنى مدينة(القيروان) والذى نازل (الروم) و(البربر) وهزمهم شر هزيمة، والذى قطع بلاد (المغرب) بجنوده شمالا وجنوبا وشرقا وغربا مظفر الراية لا يثنيه شىء حتى وصل إلى شاطئ (المحيط الأطلسى)، واندفع بفرسه خائضا فيه حتى بلغ الماء صدر الفرس وهو شاهر سيفه وقال كلمته المأثورة "اللهم فاشهد أنه لولا هذا

---

(١) برا وبحرا .

البحر المحيط لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك مدافعا عن دينك، مقاتلا من كفر بك وعبد غيرك" وقد استشهد هذا البطل فى طريق عودته إلى "القيروان"، وتوالى من بعده الولاة على المغرب حتى جاء الفاتح البطل (موسى بن نصير) ، واتخذ هؤلاء الولاة (عقبة بن نافع) قدوة صالحة لهم فى جلاد (الروم) و(البربر)، فأتم الله على أيديهم النصر، أما (الروم) فرحلوا يائسين، وأما (البربر) فهدأت ثائرتهم ودخلوا فى دين الله أفواجا بعد أن عنى (الخلفاء) والولاة ببعث (الفقهاء) إليهم ليشرحوا لهم حقائق الإسلام، وتآخى (البربر) مع (العرب) الفاتحين، ونعموا بالعدل والمساواة، وأقبلوا على الجهاد فى سبيل الله مع إخوانهم العرب فى حماسة وإقدام يتفقان مع ما عرفوا به من قوة وشكيمة، وأقبلوا على (اللغة العربية) يتعلمونها حتى غلبت على لغاتهم الأصلية[١].

---

(١) وعملوا جميعا على أن تنعم الشعوب كلها بهذه القيم السامية وعلى إقامة صروح العلم والحضارة والتقدم فى البلاد المجاورة لهم، كبلاد (الأندلس) التى افتتحوها بعد قليل على عكس ما فعل الفاتحون الأوربيون بعد ذلك، فحين جاء (الاستعمار الأوربى) فى العصر الحديث إلى (العالم الإسلامى)، كان من أهم أهدافه التخريبية تمزيق وحدة الأمة الإسلامية فى شتى أقطارها، بتفكيك عناصرها المتلاحمة، ليسهل عليه التغلب عليها وافتراسها، وعلى سبيل المثال: أخذ (الاستعمار الفرنسى) فى بذر الوقيعة بين عنصرى (العرب) و(البربر) فى (المغرب) و(الجزائر)، وبين عناصر (العرب والأكراد والدروز) فى (بلاد الشام)، ونجح ــ من أسف ــ فى ذلك إلى حد كبير ، نشهد آثاره إلى اليوم ــ كما نجح (الاستعمار الإنجليزى) فى بث الفرقة والقطيعة فى (السودان) بين (عربه وذنوجه) فى أقاليم (الجنوب) وفى إقليم (دارفور) مما نراه ماثلا أمام أعيننا الآن!! كما نجح فى (الهند) فى الإيقاع بين العنصرين الكبيرين (الإسلامى) و(الهندوسى)، وتحويلهما ــ بعد الوحدة والتآلف والعيش فى وئام ــ إلى دولتين متعاديتين متناحرتين، ومثل ذلك فعل

تم هذا فى حدود (العام التسعين) الهجرى، ولم يكن قد بقى شىء من المغرب الإفريقى لم يفتحه المسلمون سوى مدينتين ساحليتين هما: (سبتة) و(طنجة) فى حوزة (الروم)٠

أما (سبتة) فكانت على الشاطئ الشرقى لمضيق (جبل طارق) من ناحية (البحر الأبيض المتوسط) ، وأما (طنجة) فكانت على الجانب الغربى من هذا المضيق من جهة المحيط الأطلسى، وكانت كل منهما ذات قلاع حصينة تحميها من الداخل وكان البحر والأساطيل تحميهما من الخارج إلا أن المسلمين نجحوا فى الاستيلاء على (طنجة) وبقيت (سبتة) مع (الروم) ولكن ينوب عنهم فى حكمها وال من قبل (القوط) حكام (الأندلس) لقربها الشديد من شاطئ الأندلس، وكان الكونت (يوليان) واليا على (سبتة) أيام ولاية (موسى بن نصير) على (المغرب)، وكان (يوليان) مهادنا للمسلمين غير راغب فى حربهم، ثم كان عونا لهم عندما عزموا على فتح (الأندلس)، بل قيل إنه كان المحرض لهم على ذلك الفتح لسبب سنشير إليه عما قريب بإذن الله تعالى٠

(الاستعمار الهولندى) فى (أندونيسيا) وهنا يظهر الفرق واضحا بين (الفتوح الإسلامية) و(الغزو الأوربى) ، (فالفاتحون المسلمون) فى العصور الوسيطة كانوا يوحدون العناصر، ويبنون الحضارات والتقدم فى ظل الإخاء والتسامح الإنسانى، و(الفاتحون الأوبيون) صاروا يفرقون الشعوب، وينهبون خيراتها ويشعلون نيرأن العداوات بينها، وينشرون الفقر والدمار فى ربوعها٠

والتاريخ شاهد، وحكم عدل فى ذلك ــ ولاحظ ما خلفته عهود الاستعمار فى أفريقيا وآسيا من مآس ومصائب ومجاعات ومجازرو أمراض، تجسدت فيما سمى فى العرف الدولى (بالعالم الثالث) ويا له من عار وشنار على أوربا وحضارتها ٠

أسباب الفتح :

تطلع (موسى بن نصير) والـى المسـلمين العـام علـى بـلاد (المغرب) من قبل الخليفة الأموى (الوليد بن عبـدالملك) تطلـع إلـى (العدوة) المقابلة حيث (الأندلس) التى لا يفصلها عن بلاد المغـرب إلا هذا (المضيق)، وكان قد سمع عن طيب هذه البلاد وسـعتها وغناهـا، وما ينوء به أهلها من سوء الحكم وقسوة الظلـم، وجبـروت الحكـام وطغيانهم وحدثته نفسه بفتح هذه البلاد، ويمكننا أن نرجع أسباب هـذا التفكير الذى اقترن بالعزم ثم التنفيذ، إلى الآتى :

١ – توقان (*) نفس (موسى) على أن يكون له شرف مواصلة الجهاد فى سبيل الله ونيل ثوابه اقتداء بمن سـبقه مـن ولاة المغـرب ولاسيما البطل الشهيد (عقبة بن نافع) ٠

٢ – رغبته فى أن يضم رقعة جديدة لها شأنها إلـى أرض الإسـلام تعلو فيها رايته، وتسود فيه مبادئه السمحة الكريمة ٠

٣ – كما شحذ همته ـ وهو فى أقصى المغرب من بلاد الإسـلام ـ ما يقوم به فى ذات الوقت أنداد له فى أقصـى المشـرق مـن فتوحات باهرة، وما يحرزون من انتصارات رائعة فى نـواحى (الهند) و(التركستان)، فلماذا لا يجاريهم فى هذا المجـال؟ ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ (١) ٠

(*) تاقت نفسى إلى الشىء توقا وتوقانا: أى اشتاقت . (الصـحاح للجـوهرى) وتاق إلى الشيىء: هم بفعله وخف . (القاموس المحيط للفروزابادى)٠

(١) جزء من آية كريمة هى الآية رقم ٢٦ من (سورة المطففين) ٠

٤ - رجاؤه أن يخلص الله أهل (الأندلس) على يديه مما هم فيه من ذل واستعباد، وهى رسالة شعر بها المسلمون الفاتحون تجاه البشرية كلها انطلاقا من فهمهم للروح الإنسانية التى جاء بها الإسلام، وتميز بها من بين الأديان.

هذه فى رأينا (الأسباب الحقيقية) لفتح المسلمين (بلاد الأندلس)، حللناها واستخلصناها من وقائع تاريخ الفتوح الإسلامية، وشواهدها الواضحة الصادقة، ولكن بعض المؤرخين يورد روايتين تتضمن كل منهما سببا مباشرا للغزو العربى لهذه البلاد، نذكرهما، ونعلق عليهما بإذن الله تعالى، موضحين رأينا فيهما .

١ - كان يحكم (الأندلس) عندما فكر المسلمون فى فتحها الملك القوطى (رودريك) وهو المعروف عند العرب باسم (لذريق) وكان فى أول أمره أحد قادة الجيش فى عهد سلفه الملك (ويتزا) أو (غيطشة) كما نطقه المسلمون ، فلما مات هذا الملك ــ وكان أولاده صغارا ــ انتهز (رودريك) الفرصة ودبر للوثوب على العرش وتنصيب نفسه ملكا ونجح فى ذلك مبعدا أسرة (غيطشة) عن الحكم، فانزوت مغلوبة على أمرها .

وأعان (رودريك) على تحقيق أهدافه أن (غيطشة) كان ملكا سيئ السيرة، ويقال إنه كان صاحب تفسير منحرف فى (المسيحية) يدعو لمقارفة المعاصى وارتكاب السيئات اتكالا على توبة صورية يعود بعدها العاصى لما كان عليه وهكذا ......

واتبعه الشعب فى هذا المنكر ، ـ فالناس على دين ملوكهم ـ ودانت البلاد من بعده (لرودريك) على أساس أن يحسن السيرة، ويحسن الأمور، لكنه لم يلبث بعد مدة أن جدد عهد سلفه فى الفساد والطغيان وسوء السيرة، فكرهه الناس إلى جانب ما كانت تضمر له أسرة غيطشة) المبعدة من حقد وكراهية. وتقول الرواية الأولى إن أفراد هذه الأسرة دبروا فى الخفاء لخلع (رودريك) وإعادة الملك إليهم، وكان مما فكروا فيه أن يستعينوا بالعرب المسلمين فى المغرب لتحقيق هدفهم، فأرسلوا إليهم ليمدوهم بقوة تعينهم على قهر عدوهم لقاء جعل[1] مالى يؤدونه إليهم مع تعهدهم بإعداد السفن التى سينتقل عليها الجيش العربى من عدوة (المغرب) إلى عدوة (الأندلس)، وكان الوسيط بين الطرفين هو الأمير (يوليان) والى (سبتة) وكان أحد الناقمين على (رودريك) والمؤيدين لأسرة (غيطشة) ويقال إنه كان صهراً لهم، وتقول الرواية إنه نجح فى وساطته مع العرب.

وأقنع العرب بالعبور فعبروا، وأمدهم بكثير من المعلومات التى أعانتهم على الفتح. على تقدير أن العرب سيكتفون بالجعل والغنائم ثم يعودون بعد ذلك إلى (المغرب).

وتقول الرواية الثانية : إن الأمير (يوليان) والى (سبتة) كان هو صاحب فكرة إغراء العرب بفتح (الأندلس) بسبب عداوة شخصية بينه وبين (لذريق) فقد كانت (فلورندا ابنة يوليان) وديعة فى قصر الملك ـ

---

(١) "الجعل بالضم ما جعل للإنسان من شىء على الشىء يفعله، وكذلك الجعالة، والجعيلة مثله.." أهـ . من معجم (الصحاح) للجوهرى.

على عادة ملوكهم فى استيداع أولاد النبلاء لديهم حتى يضمنوا ولاءهم فاغتصب (لذريق) الفتاة وسلبها شرفها، خيانة وغدرا وعدوانا، وعلـم أبوها، فثار لعرضه، وعزم على الثأر من (لذريق) والإطاحة به، فدبر أمره سرا، واتصل بجيرانه العرب، وحبب إليهم فتح (الأندلس) وهون عليهم أمر فتحها واصفا ما هى عليه مـن التفكـك والضـعف مبـديا استعداده لمعاونتهم فى الحـرب، واضـعا خبرتـه وإمكاناتـه تحـت تصرفهم، فاستجابوا له فكان الغزو والفتح .

والرواية الأولى عندنا مستبعدة، لما هو ثابت ومعروف مـن أن المسلمين فى فتوحهم لم يكونوا قط جيوشا مستأجرة تغزو لقـاء مـال مهما عظم، ولا كانوا يخوضون الحرب حبا فى الحـرب والمغـامرة. وإنما كانوا ــ كما أسلفنا ــ ينبعثون إلى الفتوح كمجاهدين فى سـبيل الله، وأصحاب رسالة يبلغونها إلى الأمم، مرحبين بالموت والشهادة من أجل تحقيق أهدافهم النبيلة الخيرة .

وأما الرواية الثانية فيمكن قبولها من جانب أنها نصـر للمظلـوم ضد الظالم، وعون على إزالة الباطل والطغيان وإجابـة لمستصـرخ مستغيث بالنجدة والإغاثة وهذا يتفق مع أخلاق العرب وتقاليدهم. ومع ذلك فإننا نعدها ــ إن صحت ــ عاملا مساعدا وليست العامل الرئيسى للفتح .

وعلى أية حال فقد جالت فكرة (فتح الأندلس) فى عقول المسلمين فى أواخر العقد التاسع الهجرى ٩٠هـ الموافق لأوائل القرن الثـامن

الميلادى ٧١٠م ودور (يوليان) فى تقوية هذه الفكرة وتحسينها ثابت تاريخيا، أيا كانت صورة هذا الدور، وأيا كان الباعث عليه .

ولما اختمرت الفكرة فى رأس (موسى بن نصير) واقتنع بها تماما أرسل إلى خليفة المسلمين فى (دمشق) (الوليد بن عبدالملك) عارضا إياها، ومرغبا فيها، ومستأذنا فى تنفيذها .

وكان (الوليد) خليفة ذا همة، محبا للجهاد والغزو فى سبيل الله ، ولهذا تم فى عهده من الفتوحات فى المشرق والمغرب ما لم يتم مثله فى عهد غيره من خلفاء (بنى أمية) ومع ذلك فقد كان ذا حكمة وروية، ويكره من قواده التسرع والاندفاع المؤديان إلى إلحاق الضرر بالجيوش الإسلامية وإيقاعها فى الأخطار، لقوة شعوره بمسئوليته عن ذلك أمام الله عزوجل ، فكان يدعو قادة هذه الجيوش إلى الحذر وأخذ الحيطة، وينهاهم عن التغرير بجنودهم وإخوانهم المجاهدين. وهذا ما نصح به الخليفة قائده (موسى) وبخاصة وأن أمر غزو (الأندلس) يقتضى ركوب البحر وخوض غماره، واقتحام مخاطره.

وحين سهل له (موسى) الأمر بأن هذا البحر لا يعدو أن يكون (مضيقا) ميسور العبور، وجهه الخليفة إلى المزيد من الحذر، والاحتياط وألا يعبر بالجيش كله دفعة واحدة وإنما عليه أن يختبر الأمر أولا (بالسرايا) [١] والبعوث الاستطلاعية وأذن له إذا اطمأن بعد ذلك فى أن يواصل المهمة، ويتقدم غازيا على بركة الله .

---

(١) جمع (سرية) : وهى القطعة الصغيرة من الجيش.

خطوات الفتح

عمل (موسى) بتوجيهات الخليفة الحازم ونصائحه الحكيمة فاختار (أولا) نائبا عنه من أكفأ قادته وأشجعهم فأمره[١] على جزء من الجيش ليتقدمه فى هذه المهمة الكبيرة ذلكم هو (طارق بن زياد) واليـه علـى (طنجة) وكلفه (نائبا) بألا يعبر إلى (الأندلس) إلا بعد أن يرسل سـرية تستكشف له الطريق، وتعود بأخبار العـدو وأحوالـه بعـد أن تعجـم عوده[٢] بمناوشات خفيفة.

(**سرِيَّة طريف**) :

أرسل (طارق) بأمر (موسى) أحد القادة وهو (طريف بن مالـك) على رأس سرية عدتها خمسمائة رجل كطليعـة للمسـلمين، وعبـر (طريف) برجاله المضيق من الشاطئ المغربى فى أربع سفن — قيـل إن الذى أعدها هو (يوليان) وذلك فى أواخر عام (٩١هـ ، ٧١٠هـ) ، ونزل على رأس من رءوس الشاطئ الإسبانى سمى باسمه حتى اليوم (رأس طريف) وهناك تقدم بجنوده إلى أقرب البلاد الأندلسية إليه وهى ما أسماه العرب (الجزيرة الخضراء) فدخلها ولم يلق مقاومة ، وغـنم منها ما شاء الله أن يغنم . ثم عاد إلى (المغرب) بجنوده سالمين.

وأدلى (طريف) بنتائج مهمته الاستطلاعية الموفقة إلى (طـارق) و(موسى) فسرا بها كثيرا، ولكن (موسى) لم يكتف بذلك بل أرسل بعد

(١) أمره: جعله أميرا .
(٢) تعجم عوده: تبلو أمره، وتختبر حاله وأصل تعجم العود: عـض الغصـن، لتعلم صلابته من خوره .

بعث طريف بعثا آخر، وسرية ثانية للمكان نفسه والغرض عينه بقيادة شيخ من مسلمي (البربر) يدعى (أبا زرعة) فـي ألـف رجـل مـن المسلمين، فعبروا واختبروا الأماكن والطرق، وعـادوا كمـن سـبقهم سالمين غانمين، عندها قوى عزم (موسى بن نصـير) القائـد العـام واطمأن إلى سداد فكرة الفتح، ووثق من صـدق (يوليـان) ونصـحه للمسلمين، وأخذ فى الاستعداد العملى لهذا الأمـر الجليـل والحـدث الخطير، فأصدر أوامره إلى (طارق بن زياد) أن يكـون علـى أهبـة الاستعداد للعبور إلى (الأندلس) على رأس الجيش الإسلامى الذى أعد لهذا الغرض، ثم أذن له بالعبور بعد عدة شهور من بعث (طريف).

بدء الفتح ودخول (طارق بن زياد) :

وكان قد حل عام ٩٢هـ ــ ٧١١م فصدع (طارق) بالأمر وعبر فى سبعة آلاف مقاتل ثم أمده (موسى) بخمسة آلاف ، فصارت عـدة جيشه (اثنى عشر ألفا)، وكان نزوله قريبا من جبـل علـى الشـاطئ الإسبانى سمى باسمه وما زال محتفظا بهذا الاسم حتى اليـوم (جبـل طارق) واقترن المضيق أيضا باسمه فقيل وما زال يقـال : (مضـيق جبل طارق) .

نزل طارق بجنوده على هذا الجبل، وزحـف علـى "الجزيـرة الخضراء" فاحتلها وهى ثغر الأندلس الجنوبى وأخذ فى تنظيم جيشـه استعدادا للقاء (رودريك) طاغية هذه البلاد، وحاكمها المستبد، ويقال إن طارقا رغبة منه فى تأكيد مهمته الجليلة الخطيرة ، وعندما علم بقـدوم

"رودريك" على رأس جيش عرمرم[١] ـ أمر بالسفن التى أقلت جيش المسلمين إلى الأندلس فحرقت، ثم خطب فى جنده الخطبة التاريخية المشهورة المنسوبة إليه والتى سنورد نصها فيما بعد إن شاء الله، والتى من كلماتها المأثورة: "أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله غير الصدق والصبر ... الخ".

وكان "رودريك" آنذاك فى شمال البلاد يقاتل بعض الخارجين عليه من قبائل "البشكنس" ، فلما علم بنزول المسلمين فى بلاده أسرع عائدا إلى الجنوب لملاقاتهم فى جيش لجب، عدته (سبعون ألفا) مدججين بأقوى الأسلحة وأوفر العتاد، واثقا من سحق القادمين بعد ما علم بقلة عددهم وعددهم بالقياس إلى جيشه الكبير وعدته التامة، ولما وصل إلى الجنوب ، وصار قريبا من معسكر المسلمين تأهب الفريقان ، والتقيا فى وادى (لكة) بالقرب من نهر (بقة) ، ودارت معركة رهيبة استمرت أسبوعا كاملا صبر فيها المسلمون صبرا عظيما وكانوا متفوقين على عدوهم فى (الروح المعنوية) وشدة التماسك وقوة الإقبال على الله عزوجل ، فلم يلبث الخلل أن وقع فى جيش (رودريك) وانهزم هزيمة منكرة، والمسلمون فى أثره يقتلون ويأسرون، وأما (رودريك) فقيل إنه قتل فى أول المعركة بيد (طارق)، وقيل بل فر مع الفارين ولم يعثر له على أثر إلا فرسه وبعض ثيابه على شاطئ النهر مما يرجح موته غرقا، وبهذا النصر العظيم فى تلك المعركة الحاسمة، معركة

---

(١) جيش عرمرم: كثير العدد وجيش لجب: ذو حركة وصياح واضطراب، كناية عن ضخامته .

(وادى لكة) أو وادى (شريش) فتح باب الأندلس علـــى ســعته لتقــدم المسلمين .

وأرسل (طارق) إلى (موسى) يبشره بالنصر الكبير ومضى فـــى طريقه يفتح البلاد والحصون مستثمرا أثر الضربة الأولى فى نفــوس الأعداء، غير منتظر أمر قائده العام (موسى بن نصير) ففتح (قرطبة) و(أرشدونة)، و(مالقة ومرسيه ثم اتجه إلى (طليطلة) العاصمة .

سر (موسى) بما حققه قائده وجنوده من نصر مؤزر ثم بلغــه أن طارقا توغل فى بلاد الأندلس وهى بلاد واسعة شاسعة الآفاق، فأشفق من عاقبة هذا التوغل على الجيش الإسلامى، وخشى أن تنقلب الأمور عليه، فأرسل إلى (طارق) يأمره بالتوقف حتى يوافيه بالرأى.

دخول موسى بن نصير إلى (الأندلس) :

عندما علم (موسى) أن (طارقا) ماض لا يلوى على شىء عــزم على المسير بنفسه إلى الأندلس ليكــون للمســلمين مــددا عســكريا، ورداء[1] لهم بالرأى والمشهورة، ووقاية لهم من أى خطــر يتهــددهم، وليرى هذه البلاد المفتوحة، ويشارك إخوانه شرف الجهاد فى ســبيل الله، وينال نصيبا أعظم من المجد الذى وضع أساسه، وأرسى بنـــاءه، ورفع أعلامه، فجهز جيشا من عشرة آلاف ــ وقيل ثمانية عشر ألفا ــ وعبر به المضيق إلى (الأندلس) عام ٩٣هـــ ــ الموافق ٧١٢م أى بعد عام تقريبا من عبور (طارق) .

---

(١) الردء : العون والقوة والعماد (قاموس) .

وكان نزوله على مكان جديد على جبل سمى (بجبل موسى) كما أنه سلك طريقا آخر غير الذى سلكه (طارق)، وإذ كان طريق هذا شرقا فقد سار (موسى) غربا على أن يلتقيا شمالا فى منتصب شبه الجزيرة الأندلسية.

وكان هذا رأيا حصيفا من (موسى) وخطة حربية بارعة فقد افتتح بلادا جديدة، وحصونا عديدة، وذلل عقبات جمة، وانطلق باسم الله مظفر الراية منتصرا حتى التقى بنائبه (طارق) قرب (طليطلة) عاصمة (القوط) قبيل فتحها أو بعيده على خلاف فى الروايات .

وعندما التقى (موسى) القائد العام بنائبه وطليعته فى الفتح (طارق) لامه وعاتبه على مخالفة أمره بالمضى فى الغزو وعدم التوقف واعتذر له طارق بما أقنعه من الظروف الحربية، وأنه ما صنع ذلك إلا لمصلحة المسلمين، فرضى (موسى) عنه، وانطلقا معا ففتحا (طليطلة)، ثم افترقا وفق خطة مرسومة لفتح ما بقى من أجزاء هذا القطر الواسع الأرجاء.

وهناك رواية تقول إن (موسى) عندما لقى طارقا أهانه وعنفه على رءوس الأشهاد، وهى رواية ضعيفة عندنا وعند كثير من المؤرخين لأن هذا التصرف لا يليق (بموسى) فى سنه وورعه وعرفانه لفضل المجاهدين، وإنما الذى كان منه لوم وعتاب ـ كما قدمنا ـ وهذا من حقه على مساعديه إذا كان هناك ما يستوجبهما والذى كان من (طارق) اعتذار وتوضيح، ثم بعدهما رضا القائد العام

عنه بدليل سيرهما معا بعد ذلك للفتح، ثم اقتسامهما خطة إتمامه ولو كان (موسى) قد أساء إلى (طارق) بهذه الصورة الكريهة التى روتها بعض كتب التاريخ لما أمنه على قيادة نصف الجيش، وتسييره فى طريق منفصل عنه .

وقد تم لهما الفتح فى أربع سنوات من ٩٢هـ إلى ٩٦هـ ، ٧١١م — ٧١٥م ، **وهى مدة قياسية فى قصرها وفتح عجيب فى سرعته**، ينضم إلى قائمة الفتوح الإسلامية الباهرة المظفرة فى مشارق الأرض ومغاربها عند فجر الإسلام، والتى أراد الله بها رفع راية دينه وإبلاغ رسالته السامية للبشرية جمعاء.

وكان مما بلغه (موسى بن نصير) أنه أخضع إقليم (جليقية) فى أقصى الشمال الغربى ما عدا أجزاء صغيرة من هذا الإقليم تركها (موسى) ومن بعده من الولاة لبردها الشديد ومحولها [*] ووعورة جبالها وقلة سكانها [وكان هذا الجزء بعد ذلك نواة للدولة المسيحية التى أخذت تنمو شيئا فشيئا وتناوش المسلمين وتتربص بهم الدوائر حتى تم لها إخراج المسلمين من الأندلس بعد ثمانية قرون] ، ثم اتجه موسى إلى الشمال الشرقى ، وفتح بلادا لم يبلغها طارق واستمر فى تقدمه شمالا حتى بلغ (جبال البرانس) فاعتلاها بجيشه وانحدر منها إلى ما وراءها من الأرض الكبيرة أرض الفرنجة (فرنسا) فغزا العديد من بلدانها[١] وأوغل فيها فاتحا غانما موفقا، ثم عاد إلى أرض الأندلس .

(*) المحل : الجدب، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ .
(١) مثل (تولوز) و (ليون) .

وأرسل موسى رسله إلى الخليفة (الوليد) فى (دمشق) يبشره بفتح (الأندلس) فخر الوليد ساجدا شكرا لله على ما أفاء به على المسلمين من هذا الفتح المبين[١].

وكانت خطة (موسى بن نصير) بعد أن تم فتح (الأندلس) وما جاورها ووصوله إلى قلب بلاد الفرنجة (فرنسا) دون عقبات تذكر أن يواصل تقدمه فى البلاد الأوربية حتى يصل إلى (القسطنطينية) عاصمة الروم فيحقق حلم المسلمين بفتحها ثم يسير من بعدها إلى (آسيا الصغرى) ومنها برا إلى (الشام) وإلى (دمشق) عاصمة الخلافة فيطوق بذلك (البحر الأبيض المتوسط) ليصير بحيرة إسلامية مائة فى المائة ، وينشر الإسلام فيما بقى من أقطار هذه الدائرة الواسعة التى تمثل أكثر من نصف العالم القديم، وليستطيع المسافر المسلم ــ لو أراد السفر من (دمشق) متجها ناحية الغرب أن يظل فى طريقه لا يلتفت وراءه، حتى يعود إلى (دمشق) مرة أخرى من ناحية الشرق متنقلا فى بلاد تستظل براية الإسلام الخفاقة وتتردد فى جنباتها كلمة التوحيد.

ولكن الخليفة (الوليد بن عبدالملك) عندما علم بهذه الخطة أشفق على جيوش المسلمين أن تهلك فى هذه الأصقاع الشاسعة وأن يقطع

---

(١) ويقال إن الخليفة وهو فى المجلس نفسه جاءه رسول بفتح آخر فخر لله ساجدا وما أن رفع رأسه من سجدة الشكر حتى أتاه رسول ثالث بفتح آخر فى جبهة أخرى فخر ساجدا. وهذا من عجائب الموافقات، كما أنه يبين حال الفتوح الإسلامية فى عهد هذا الخليفة الفاتح الماجد .

وراجع (الإسلام ونهضة الأندلس) لأحمد مظهر العظمة ط دار الجهاد بالقاهرة ١٩٥٩م.

عليها خط الرجعة، ورأى فى هذا المشروع مخاطرة غير مأمونة العواقب، فأرسل إلى (موسى) رسولا يستدعيه وطارقا إلى (دمشق) لمقابلة الخليفة ولما أبطأ عليه أرسل إليه رسولا آخر يستعجله فلم يجد (موسى) بدا من الطاعة والإجابة ٠

فاصطحب (طارقا) وبعض إخوانه، وقفل بهم إلى (دمشق) بعد أن استخلف على (الأندلس) ولده (عبدالعزيز) وحمل (موسى) معه من الغنائم الكثيرة، والذخائر النفيسة "ما ذاع صيته، ولا يقدر قدره، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته، أسف على ما لحقه من الإزعاج والتوقف ٠

وجد (موسى) فى المسير حتى وصل إلى (دمشق الشام) ومن سوء الحظ أن كان وصوله فى أواخر أيام الخليفة (الوليد) حيث كان فى مرض الموت، فلم يتح (لموسى) وصاحبه (طارق) أن يكرما التكريم اللائق بما قاما به من جلائل الفتوحات، ولم يلبث (الوليد) أن توفى بعد أن أدى إليه (موسى) الأخماس والمغانم والتحف والذخائر وآل الأمر من بعده لأخيه (سليمان بن عبدالملك) وكان شابا مغرورا، لم يعرف لموسى حقه ، إلى جانب أنه كان مضطغنا عليه، لعدم استجابته رجاءه أن يتريث فى الدخول إلى (دمشق) حتى يموت (الوليد)، ليكون هو صاحب التصرف فى غنائم (الأندلس) الهائلة، فتعلل عليه العلل وسمع فيه أقوال الوشاة الحاقدين بأنه غل[1] من

(١) غل المحارب من المغنم غلولا: أى خان، وفى القرآن الكريم : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ سورة آل عمران الآية ١٦١ ٠

الغنائم فعزله عن جميع أعماله وأقصاه عن رضاه، ولم يكتف بهذا بل أمر بالقبض عليه ومحاسبته حسابا عسيرا على الغنائم وفرض عليه غرامة باهظة عجز عن أدائها ومات رحمه الله — فى محنته القاسية، ونكبته الفادحة عام ٩٧هـ .

وأما طارق فقد انقطعت أخباره بعد وصوله إلى (دمشق) بقليل، ولم يرو لنا التاريخ شيئا عن أخباره أو نهايته، ونرجح أنه اختفى وانزوى بعيدا، اتقاء لبطش السلطة — بعد ما رأى ما حل بأستاذه من نكال — حتى مات فى زوايا النسيان.

تعليق :

إنه لأمر عجيب حقا، وإنه لشىء مؤسف للغاية مؤلم أشد الألم أن تكون نهاية فاتحى (الأندلس) البطلين العظيمين هذه النهاية الفاجعة والشاذة الغريبة، فقد ظلما أفدح الظلم — ولاسيما موسى — ولكن التاريخ يعرف قدرهما ويشيد بما قدماه للإسلام والمسلمين من مجد باذخ وشرف خالد، وإنا إذ نترحم عليهما لنرجو أن يكون أجرهما عند الله عظيما، ومنزلهما فى جنات خلده رفيعا كريما.

أما (سليمان بن عبدالملك) الذى ظلم (موسى) ونكبه فلم يهنأ بشبابه ولا بالخلافة طويلا، ومات بعد عامين أو أقل من وفاة (موسى) فسبحان من بيده مقاليد الأمور، وإليه المرجع والمآب.

الفصل الثالث

الأندلس تحت الحكم الإسلامى

بعد أن دانت البلاد الأندلسية للحكم الإسلامى فى هذا الزمن الوجيز توافى إليها من المغرب كثير من أبناء القبائل (العربية) وأبناء القبائل (البربرية) بأزواجهم وأولادهم بعد ما سمعوا عن طيب هذا البلد وكثرة خيراته، إلى جانب العشائر (العربية والبربرية) التى كانت مادة الجيش الإسلامى الفاتح، واتخذوها دار إقامة[1]، وعاملوا أهلها من (النصارى واليهود) معاملة طيبة، طبقا لما تدعو إليه سماحة الإسلام ومبادئه العادلة ، فبدأ أفراد الشعب الإسبانى يقتربون من الفاتحين المسلمين، ويعيشون معهم فى مودة، سعداء بتخلصهم من جور (الحكم القوطى) واستبداده، وبما تحقق لهم من عدل ومساواة وحرية فى عقائدهم، وأمن فى مختلف شئون حياتهم. وأقبل كثير منهم على اعتناق الإسلام طواعية واختيارا وامتزجوا بالفاتحين بالزواج والمصاهرة كما أقبل أهل إسبانيا جميعا مسلمون وغير مسلمين على تعلم اللغة العربية وإتقانها متخلين عن لغتهم الإسبانية، فلم يمض وقت طويل حتى سادت اللغة العربية المجتمع الأندلسى وصارت لغته المفضلة والرسمية لجميع طوائفه .

وقد مر الحكم الإسلامى لبلاد الأندلس (بستة مراحل) نذكرها فى إيجاز :

---

(١) إلى جانب الموجات العربية التى تتابعت بعد ذلك .

١ـ مرحلة حكم الولاة :

من عام ٩٢هـ إلى عام ١٣٨هـ ومدتها ستة وأربعون عاما (أى قرابة نصف قرن من الزمن) ٠

وقد حكم الأندلس فيها ولاة تابعون للخليفة الأموى فى (دمشق) الذى جعل (الأندلس) تابعة لولاية (المغرب)، يرسل والى المغرب إليها من شاء من قبله ثم استقل والى (الأندلس) عن ولاية (المغرب) وصار يعين من قبل الخليفة مباشرة فى عهد خلافة "عمر بن عبدالعزيز" ﷺ، ولما دالت الدولة الأموية فى الشرق وزالت خلافتهم، وحلت محلها الدولة والخلافة (العباسية)، انتقلت تبعية والى (الأندلس) إلى الدولة الجديدة، ولكن تبعية (الأندلس) للخلافة (العباسية) لم تدم سوى (ست سنوات) من عام ١٣٢هـ إلى عام ١٣٨هـ. حدث بعدها التغيير الذى سنذكره وشيكا، وقد بلغ عدد الولاة الذين حكموا فى هذه المرحلة (واحدا وعشرين) واليا وهو عدد كبير بالقياس للمدة القصيرة التى حكموا فيها، وذلك لكثرة النزاعات التى حدثت فى البلاد بعد النهاية المفجعة للفاتحين العظيمين الخالدين (طارق بن زياد) و(موسى بن نصير) ٠

٢ـ مرحلة الحكم الأموى الناشىء فى الأندلس (١٣٨هـ ـ ٤٤٢م) :

ومدته ثلاثة قرون وأربعة أعوام ــ أما سبب قيام هذا الحكم فى الأندلس فإنه لما قامت الدولة العباسية عام ١٣٢هـ . ونكلت بالأمويين وتتبعتهم قتلا وحبسا ــ فر بعضهم فى فجاج الأرض هربا من الموت

المحقق، واستطاع شاب منهم فى العشرين من عمره هو (عبـدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان) أن يفلت من العباسـيين [بعد أن شهد بعينيه مصارع كثير من الأمويين، بعضهم مـن أسـرته، [ومنهم أخوه وابنه] وأن ينجو بنفسه ويواصل فراره إلى ناحية المغرب الأقصى حيث استجار بأخواله هناك ووجد عندهم السـلامة والأمـان، ولكنه خشى إن استمر هناك أن يغـدر بـه ولاة (بنىالعبـاس) علـى المغرب ففكر فى مكان أشد بعدا عن نفوذهم فكان هو (الأنـدلس) ـــ وكان عبدالرحمن حاد الذكاء واسع الحيلة، فائق الشجاعة بعيد الهمـة عظيم الطموح، وقد سمع وهو فى منفاه القريب من الأندلس بما فيهـا من خلافات ومنازعات على الولاية بين العرب والبربر وبين القبائـل العربية ذاتها (كاليمنية) والمضرية، وما بين عرب الحجـاز وعـرب الشام والأخيرون هواهم مع (بنىأمية) فراوده الأمل أن يدخل الأندلس لا ضيفا لاجئا، ولكن مطالبا بملك، ومؤسسا لدولة يعوض بها ما فـات قومه الأمويين فى الشرق.

فأرسل عيونه للاستطلاع وجس النبض، وتمهيد الأمور لدخولـه، وصادف هؤلاء توفيقا فى مهمتهم، وعـادوا يبشـرون (عبـدالرحمن) بملاءمة الظروف، ويشجعونه على دخول (الأندلس) فأقبل على هـذه المغامرة بعزم نافذ، وجد صاعد، ودخل الأندلس فعلا عام ١٣٨هـــ. وعمره إذ ذاك خمسة وعشرون عاما ـــ ولقد تمكن بعد جهـد جهيـد، وحروب طاحنة بينه وبين أتباع (بنى العباس) أن ينتصر فـى النهايـة

وأن ينتزع (الأندلس) منهم ويؤسس فيها (إمارة أموية) تطورت من بعد إلى (خلافة) فى عهد حفيده (عبدالرحمن الثالث) الناصر .

وقد حاول الخليفة العباسى الثانى (أبوجعفر المنصور) أن يسترد (الأندلس) من (عبدالرحمن الداخل) فلم يفلح فسكت عنه لبعد الشقة بين المنصور فى (بغداد) وبين الأندلس وأيضا لدهاء عبدالرحمن وشجاعته، وأذعن المنصور للأمر الواقع وأشاد بخصمه العتيد ولقبه بـ(صقر قريش) وقال فيه كلمته المشهورة : "الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبينه" .

وهكذا انتقلت (الأندلس) إلى مرحلة (الحكم الأموى) التى دامت زهاء (ثلاثة قرون) نعمت فيها البلاد بالوحدة وكانت أزهى عصور الأندلس عزة ومجدا، وعلما وحضارة وأدبا وفنا وثروة ورخاء.

٣ ـ مرحلة حكم ملوك الطوائف : (٤٤٢هـ ـ ٤٨٤هـ) **ومدتها اثنان وأربعون عاما .**

ثم تفككت الدولة الأموية الأندلسية الزاهرة بسبب ضعف أفراد البيت الأموى الحاكم ــ وبخاصة فى نصف القرن الأخير من دولتهم ــ نتيجة إغراقهم فى النعيم والترف وإفراطهم فى اللهو والملذات، وابتعادهم عن هدى الدين واشتغالهم بتوافه الأمور، وإهمالهم شئون الرعية فكثرت الفتن وتطلعت بعض العناصر (غير القرشية) للحكم، وبلغ الأمر غاية السوء فى عهد آخر خلفائهم (المعتمد بالله) فلما وافته منيته، أعلن وزيره (أبومحمد بن جهور) انتهاء الخلافة "لعدم وجود من

هو أهل لها" واستقل هو بحكم (قرطبة) العاصـمة مـع مجلـس مـن أعيانها، واستقل حكام المدن الكبرى بأقاليمهم استقلالا تاما فظهرت فى (الأندلس) مكان الدولة الواحدة (عشرون دولة) وناهيك بهذا من تمزق، وسمى كل حاكم نفسه (ملكا) وأحاط نفسه بأبهة الملك مع جيش هزيـل لا يغنى فى دفع العدو شيئا ٠

ونذكر لك أشهر تلك الأسر التى حكمت (الأندلس) قرابة نصـف قرن . ففى إقليم (قرطبة) كان (بنوجهور)، وفى (إشبيلية) (بنوعبـاد)، وفى (مالقة ــ بنو حمود) ، وفى (بطليـوس ــ بنـوالمظفر)، وفـى (المرية ــ بنو صمادح) ، وفى إقليم (سرقسطة ــ بنو هـود)، وفـى (طليطلة ــ بنوذى النون) ، وفـى (غرناطـة ــ بنـو بـاديس) ثـم (بنوالأحمر)٠

وكان عهد ملوك الطوائف عهد ضعف (سياسى) و(حربى) بـل كان سبة فى تاريخ الأندلس الإسلامية فى هاتين الناحيتين فقـد كـانوا مختلفين لا تجمعهم سياسة واحدة، بينما كان أعـداؤهم مـن نصـارى الإسبان قد اجتمعوا على ملك واحد ورأى واحد وقد جر اختلاف ملوك الطوائف عليهم العداوات والأحقاد وكل منهم طامع فى ضـم مملكـة أخيه، فتحاربوا وتناحروا فيما بينهم، واستغل عـدوهم هـذه الفرصـة فأغار على بلادهم حيث لا مقاومة تذكر وتمكن من الاسـتيلاء علـى كثير من حصونهم وقراهم مهددا مدنهم الكبرى بالاجتياح موسعا رقعة ملكه شيئا فشيئا على حسابهم، وبلغت الأنانية والحقارة ببعضهم أنهـم

كانوا يستعينون بملك الإفرنج على إخوانهم المسلمين لقاء أموال يؤدونها إليه وبلغ بهم الخزى والعار والضعف أن قبلوا دفع الجزية لملك النصارى (ألفونسو السادس) يحصلها منهم كل عام ويجهز بها الجيوش لضربهم جميعا فى المستقبل والاستيلاء على البلاد الأندلسية كلها وطرد المسلمين منها، وبدأ هذه الخطة الغادرة بالهجوم على (طليطلة) والاستيلاء عليها عام ٤٧٨هـ ، فلم يرتدع ملوك الطوائف على الرغم مما أصابهم من ألم وفزع وعجزوا عن توحيد صفوفهم لمجابهة الطاغية الذى هدد بعد أخذ (طليطلة) بدخول (إشبيلية) وضمها لملكه، ولما رأوا الخطر محدقا بهم ويوشك أن يلتهمهم، وجهوا وجوههم ناحية (المغرب) مستنجدين بملكها (أمير المسلمين) وزعيم (المرابطين) (يوسف بن تاشفين)٠

٤ـ حكم المرابطين: (٤٨٤هـ ـ ٥٣٩هـ) **ومدته خمسة وخمسون عاما : (نصف قرن وخمس سنين)** :

توجه وفد من ملوك الطوائف على رأسه (المعتمد بن عباد) ملك (إشبيلية) وتوابعها إلى (أمير المسلمين) فى المغرب وزعيم (دولة المرابطين) آنذاك "يوسف بن تاشفين" وناشدوه الله والإسلام والجوار أن يقدم عليهم بجيشه لإنقاذ الأمة الإسلامية فى الأندلس من بطش أعدائها (نصارى الشمال) الذين استشرى خطرهم بزعامة طاغيتهم (ألفونسو السادس)، واستجاب "يوسف" لرجاء ملوك الأندلس وعبر بجنوده الأشداء إلى (الأندلس)، فاستقبل أعظم استقبال، وانضم إليه ملوك الطوائف بجنودهم، والتقوا بعدو الإسلام "ألفونسو" فى جيشه

العرمرم فى موقعة خالدة هى موقعة (الزلاقة) عام ٤٧٩هـ . فهزموه هزيمة منكرة، وسحقوا جيشه الضخم المؤلف من خمسين ألف مقاتل ولم ينج منهم إلا ملكهم فى خمسمائة من فرسانه لاذوا بالفرار وبهذا النصر العظيم من عند الله، تنفس مسلمو الأندلس الصعداء، وحل (يوسف بن تاشفين) فى قلوبهم محلا كريما، ومنزلة عالية رفيعة ثم لم يلبث "يوسف" أن رجع إلى بلاد المغرب تاركا أمانة الأندلس فى أيدى ملوك الطوائف، مخلفا حامية من جيشه لتكون لهم مددا عند الحاجة، ولتراقب الأمور عن كثب.

ولكن ملوك الطوائف عادوا بعد قليل إلى دأبهم القديم من الخلاف والتنازع فاستاء الناس، وأفتى العلماء بعزلهم وبعثوا إلى (يوسف) يدعونه لدخول الأندلس مرة أخرى، وضمها إلى مملكته، وابى (يوسف) نداء الفقهاء ودخل الأندلس هذه المرة عازما على القضاء على (ملوك الطوائف) الذين اقتنع بأنهم سبب البلاء وأس الفساد فى هذه البلاد، وتم (لابن تاشفين) ذلك، فعادت للبلاد وحدتها تحت حكم المرابطين، وصلحت أحوالها لحرص (يوسف) على إرضاء الله وتنفيذ أحكام الشرع وإقامة العدل بين الناس، وانكمش النصارى مدحورين ومذعورين فى معاقلهم الشمالية البعيدة، ومضت على ذلك مدة تقارب نصف قرن ولكن المرابطين وقد عاشوا هذه المدة فى (بلاد الأندلس) الجميلة ذات الخيرات الوفيرة، والحضارة البديعة، لم يلبثوا أن ألفوا الدعة، واستكانوا إلى النعيم، وزالت عنهم بالتدريج صفاتهم الحربية التى جاءوا بها من خشونة وشجاعة وحماسة لنصرة الإسلام —

فتراخت قبضتهم عن الأندلس ، ولم يعودوا حريصين علـــى الجهـــاد وحماية الثغور فنشط نصارى الشمال للعودة إلى هجماتهم على بـــلاد المسلمين، فكره الأندلسيون المرابطين وثاروا عليهم وأخرجوهم مـــن الأندلس فى الوقت الذى ظهرت فيه حركـــة (الموحـــدين) فـــى بـــلاد (المغرب) التى نجحت فى القضاء على دولة المرابطين فيـــه، وحلـــت محلهم فى حكمه.

٥ـ حكم الموحدين : (٥٣٩هـ ـ ٦٣٣هـ) **ومدتـه أربعـة وتسـعون عامـا (قرابة قرن من الزمان)** :

وبخروج المرابطين من الأندلس عاد الأمر إلى سوئه فى شـــتى أقاليمه فظهر أمراء الطوائف مرة أخرى، وظهرت معهم سوآتهم مـــن تناحر وتكالب على الحكم وتفرق وعجز عن منازلة المسيحيين الـــذين انتهزوا الفرصة ـــ كدأبهم ـــ وهجموا على معاقل المسلمين يغزونهـــا ويشنون منها الغارات على المسلمين بقصد اكتساحهم وإخراجهم مـــن الأندلس ، فاستنجد أهل الأندلس بدولة الموحدين بالمغرب ـــ فجـــاءوا إليها بجيوشهم وتمكنوا من السيطرة عليها، وتنظيم أمورها ثم نـــازلوا المسيحيين وانتصروا عليهم فى موقعة (الأرك) الشهيرة عام ٥٩١هـ انتصارا عظيما رد طاغيتهم (ألفونسو) على أعقابه خاسرا، وتبعه قائد الموحدين (الملك المنصور يعقوب) فحاصره فى (طليطلة) مدة ثم فـــك الحصار وعاد إلى "قرطبة" ووافق على الصلح الذى عرضه (ألفونسو) وكانت هذه غلطة من الموحدين وفرصة أضاعوها لأن (ألفونسو) ملك الأسبان أخذ يستعد للثأر والانقضاض على المسلمين فاستنجد بملـــوك

أوربا الغربية فى صورة (حروب صليبية) وجاءوا إليه فـــى جيـــوش جرارة وبعد (ثمانية عشر عاما) من موقعة (الأرك) الظـــافرة التقـــى المسلمون بأعدائهم فى موقعة (العقاب) عام ٦٠٩هـــــ ، التـــى ابتلـــى المسلمون فيها بهزيمة لم تكن متوقعة، فضـــعف شـــأن الموحـــدين ، وتوالت هجمات النصارى على البلاد الأندلسية المسلمة يأخذونها واحدة تلو الأخرى وهناك رأى أمراء الأندلس أن يعتمـــدوا علـــى أنفســـهم ، فأخرجوا الموحدين عام ٦٣٣هـــ . وتولى الزعامة فى الأندلس بعض الشخصيات القوية وكان أقواهم (ابن هود) فى شـــرق الـــبلاد و(ابـــن الأحمر) فى جنوبها ثم رأى خلفاء (ابن هود) ألا طاقة لهـــم بمنازلـــة المسيحيين الهاجمين عليهم فى ضراوة فتنازلوا عن إمـــارتهم (لابـــن الأحمر) الذى صمد فى (غرناطة) بما بقى من بلاد الأندلس الإسلامية (قرنين ونصف قرن من الزمان)٠

٦ ـ حكم بنى الأحمر: (٦٣٣هـ ـ ٨٩٧هـ) **ومدته مائتان وأربعـة وسـتون عاما :**

ويعتزى[١] (بنوالأحمر) إلى جدهم الشيخ (محمد بن يوســف بـــن نصر الأحمر) الذى يرجع نسبه إلى الصحابى الجليل سيدنا (سعد بـــن عبادة) الأنصارى الخزرجى ﷺ وكان الشيخ (محمد الأحمر) شخصية فذة[٢]، وقد تزعم الثورة فى جنوب الأندلس وشرقها فى أواخـــر أيـــام الموحدين من أجل الدفاع عن البلاد ضد هجمات النصارى على بلدان

---

(١) يعتزى: ينتسب ٠

(٢) فذة : فريدة نادرة فى صفاتها العظيمة ٠

المسلمين بعد أن تمزقت وحدتها على أثر الهزيمة فى موقعة العقــاب فأسس سلطنة (غرناطة)، واختارها لمناعة موقعها وأخذ يوسع رقعــة هذه السلطنة بضم ما استطاع من البلدان المجــاورة لهــا (كــالأرك) و(جيانة) [1] و(مالقة) و(المرية) ووصل نفوذه إلى (قرطبة) وإشــبيلية و(مرسية)، وتمت له من كل ذلك دولة صغيرة قوية لا تكاد تبلغ ربــع مساحة الأندلس لكنها كانت مزدهرة بالحضارة زاخرة بالعلوم والآداب والفنون وعلى الرغم من إحاطة نصارى الإسبان بمملكــة (غرناطــة) الإسلامية ومحاصرتهم إياها وهجومهم المتجــدد عليهــا فــإن أهلهــا وسلاطينهم من (بنىالأحمر) صمدوا صمود الأبطال، ودافعــوا أروع دفاع عن حوزة الإسلام وكانوا يهزمون جحافــل الكفــر فــى أغلــب المعارك ، ويردوهم عن (غرناطة) مدحورين واستمر ذلــك مــائتين وخمسين عاما، كلما مات سلطان، حمل الرايــة ســلطان آخــر مــن (بنىالأحمر) الأمجاد .

ولكن من أسف دب الفساد فى داخل أسرة (بنى الأحمر) وانقســم أبناؤها بعضهم على بعض وتحاربوا فى أخريات أيــامهم حتــى لقــد استمرت الحرب فيما بينهم (خمس سنوات) مما قل من حدهم وأضعف من شوكتهم، وفرح بذلك أعداؤهم من (الإسبان) فانتهزوا هذه الفرصة، وهجموا على (غرناطة) وحاصروها من كل الجهات وطلبوا من أهلها التسليم، واضطر آخر ســلاطين (بنىالأحمــر) الســلطان المشــئوم "أبوعبدالله" الذى غدر بأبيه وحارب عمه اضطر إلى تسليم (غرناطــة)

(١) وتنطق أيضا بدون تاء ، وهى بلد (ابن مالك) و(أبىحيان) إمامى العربية.

لأعدائه بعد أن دام حصارهم أمدا طـويلا أحرقـوا خلالـه مـزارع (غرناطة) وأجاعوا أهلها وكان التسليم مشروطا بشروط كثيرة أهمهـا حرية المسلمين الدينية وعدم المساس بمساجدهم وأن يتحـاكموا إلـى شريعتهم وأن يعيش المسلمون آمنين على أنفسهم وأهلـيهم وأمـوالهم وكان التسليم الحزين أوائـل عـام ٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م ، وغـادر (أبوعبدالله) الأندلس إلى المغرب حيث مـات بحسـرته، ولـم يلبـث النصارى أن غدروا بالمسلمين ـ كعادتهم ـ ونقضوا الشروط التـى تعهدوا بإنفاذها، فبدأت حملة اضطهاد المسلمين ـ وحملهم على تـرك دينهم فإما التنصر وإما مغادرة البلاد وأغلقت (المساجد) وحولت كلهـا إلى (كنائس) وأحرقت الكتب النفيسة وعذب المسلمون وأقيمـت لهـم المذابح فى كل مكان وفر بعضهم إلى بلاد (المغرب) وغيرهـا مـن البلاد الإسلامية، وثار فريق ممن بقى منهم على السـلطة الغاشـمة، رافضين الذل والهوان، واعتصموا بجبال (البشـرات) الواقعـة إلـى الشرق من (غرناطة) وحاربوا الأسبان (ثلاث سنوات) ببسالة عظيمة، بيد أن الكثرة تغلب الشجاعة، وانتهت الثورة بخروج هؤلاء الأبطـال من الأندلس فارين بدينهم وكرامتهم. وتابع نصارى الأسـبان خطـتهم القذرة فى فرض (النصرانية) على من بقى من المسلمين بعد أن فتكوا بكل من اشتبهوا فيه وحرموا التخاطب باللغة العربية كما حرموا الزى العربى والتسمى بأسماء عربية وأقاموا لذلك محاكم سـموها (محـاكم التفتيش) التى تعد سبة فى جبين (أوربا) أبد الدهر والتى كانت تحكـم على من يخالف شيئا من هذه الأمور التعسفية الجائرة بالتعذيب حتـى

الموت أو بالقتل حرقا فى الشوارع والميادين وهكذا طويت صفحة الإسلام والعربية فى (الأندلس) وهى صفحة مضيئة ناصعة البياض، وأطفأ (الأسبان) بتعصبهم الممقوت وجهلهم وأحقادهم شعلة (الحضارة الإسلامية) التى أحيت (بلاد الأندلس) وأضاءت لأوربا سبيل النهضة والتقدم، والتى ظلت متوهجة متلألئة (ثمانية قرون) كاملة وبإطفائهم هذه الشعلة تقهقرت (أسبانيا)، وغرقت فى ظلمات التخلف والجهالة لعدة قرون بشهادة التاريخ وشهادة المنصفين من أبناء أسبانيا المسيحية نفسها .

أسباب سقوط الأندلس :

أما أسباب سقوط (الأندلس) فكثيرة أهمها ما يلى :

١ – شيوع الترف والنعيم بين أهلها ولاسيما حكامها مما أضعف رجولتهم وأخمد فيهم روح الحماسة والجهاد .

٢ – إقبال كبرائهم على الشهوات والمحرمات فشربوا الخمر وفتنوا بالغناء ومجالس اللهو .

٣ – انقسام الدولة بعد (العهد الأموى) إلى دويلات متنافرة يحارب بعضها بعضا[1]، وانقسام بعض الأسر الحاكمة على نفسها كما حدث أواخر عهدى (بنى أمية) و(بنى الأحمر)، من أجل شهوة الحكم والسلطان.

---

(١) بلغ عددها زهاء عشرين دويلة ــ كما أسلفنا ــ وهذا هو الداء الوبيل الذى كان أكبر سبب للنكبات التى حلت بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها قديما حديثا، فهل من متعظ وهل من معتبر ؟؟

٤ - استعانة بعض المسلمين على بعض بأعدائهم من النصارى الذين اهتبلوا هذه الفرص للتنكيل بالمسلمين.

٥ - نظام توريث الحكم الذى كان يؤدى إلى صيرورته إلى (حدث صغير) أو (فاسق) أو (ضعيف غير كفء)، وكان الأولى الأخذ بنظام الشورى كما جاء به الإسلام فى اختيار الحاكم الكفء الصالح.

٦ - زواج بعض سلاطين المسلمين وأمرائهم بأجنبيات من جنس أعدائهم مما أوجد فى داخل قصورهم جواسيس لهؤلاء الأعداء يفشون أسرار المسلمين ويدلون على عوراتهم ومما زرع الشقاق بين الإخوة من أبناء الزوجات العربيات وأبناء الزوجات الأجنبيات وأوجد الصراع المرير على الحكم .

٧ - تراخى الدول الإسلامية القوية فى إنجاد إخوانهم الأندلسيين ـ (كالدولة العثمانية) فى (تركيا)، و(دولة المماليك) فى (مصر والشام) عندما جد الجد ، وظهرت النذر بخطورة الموقف وقرب الفاجعة.

٨ - سكوت هذه الدول بعد أن وقعت المصيبة كأن لم يفقد المسلمون (فردوسا) أقاموه، وكأن لم يفجعوا فى شعب بأكمله، وأمة بأسرها !!

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .



أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة المحفوظة بمتحف « دار الرماية » Casa de los Tiros بغرناطة

الباب الثانى

عوامل التأثير فى الأدب الأندلسى

الفصل الأول
الأحوال السياسية

قدمنا فى تفصيل (الأحوال السياسية) التى مرت (بالأندلس الإسلامية) وأشرنا فى أثنائها إلى دخول اللغة العربية مع الفاتحين من (عرب خلص) ومن (برابرة المغرب المستعربين) إلى هذا القطر الأوربى الأعجمى، ونبهنا إلى أن تأدب الفاتحين بآداب الإسلام من عدل ورحمة وتسامح فى معاملة أهل البلاد جذب هؤلاء إلى الفاتحين وحببهم فى دينهم ولغتهم، فدخل فى الإسلام طواعية أكثر أهل الأندلس، وبقى الأقلون على ديانتهم من (نصارى ويهود) أحرارا فى عقائدهم، وأقبل الجميع على تعلم اللغة العربية مسلمين، وغير مسلمين ، فلم يمض غير قليل من الزمن حتى عمت (اللغة العربية) وسادت وصارت اللغة الرسمية والمفضلة المحببة، وزادها دعما ما وفد على البلاد من أبناء شتى القبائل العربية الذين جذبهم إليها ما سمعوا عنها من طيب وخصب ورغد عيش، كما زادها تمكنا حاجة من أسلم من أهل البلاد إلى فهم (القرآن الكريم) وتحصيل (السنة النبوية) لإقامة فرائض الإسلام والتفقه فى أحكامه. زد على ذلك اختلاط الفاتحين بأهل البلاد بالزواج والمصاهرة. بكل هذه العوامل وبما تلاها من إنشاء المدارس والجامعات وظهور الكتب والمؤلفات راجت (اللغة العربية) فى بلاد الأندلس وازدهرت وتهيأ لها بهذا الرواج والازدهار أن يكون لها أدب رائع ذو خصائص متميزة هو (الأدب الأندلسى) ولقد

مر هذا الأدب بأطوار وأحوال وتأثر فيما تأثر بأحوال البلاد السياسية وبالمراحل التى توالت على (الأندلس) من ناحية الحكم، فكان له فى :

١ - مرحلة (حكم الولاة) شأن يكاد يكون قاصرا على (الخطابة) لكثرة التقلبات التى حدثت فى ذلك العصر وتعدد الولاة واشتغالهم بتأمين الفتح ومده إلى ما وراء الأندلس فى (فرنسا) و(سويسرا)٠

٢ - فلما جاء (العصر الأموى) الزاهر نعمت البلاد بالاستقرار والأمن والعزة وبالتقدم الحضارى ونهض الأدب شعرا ونثرا نهضته الكبرى فى الأندلس فى ظل الأمراء والخلفاء من (بنىمروان) وحملت (قرطبة) لواء هذه النهضة المباركة زهاء ثلاثة قرون هى خير أزمان الأندلس على الإطلاق .

٣ - وجاء بعد (العصر الأموى) (عصر ملوك الطوائف) وهو وإن كان عصر تفكك وضعف سياسى وحربى إلا أنه كان عصر ازدهار أدبى مستمد من قوة الدفع السابقة من ناحية، ومن تنافس ملوك الطوائف فى تشجيع الآداب والعلوم والفنون من ناحية أخرى، أضف إلى ذلك أن معظم هؤلاء الأمراء والملوك كانوا أدباء وشعراء مفتونين بالأدب والشعر مسهمين فى نهضته بأوفى نصيب ، (كالمعتمد بن عباد) أشهر ملوك الطوائف٠

٤ – وأتى بعد ذلك (عهد المرابطين) القادمين من المغرب ولم يكـــن لهم حظ من الثقافة والأدب والعلم كحظ الأندلسيين بل كانوا قوما أقرب إلى البداوة فضعف الأدب فى عهدهم بعض الضعف.

٥ – ولما جاء بعدهم عهد (الموحدين)، ـــ وكانت لهم عناية بـــالأدب والعلم ـــ انتعش الأدب فى عهدهم بعض الانتعاش .

٦ – ولما آل الأمر إلى (بنى الأحمر) ـــ وهم فى العروبة من الصميم ـــ نهض الأدب فى ظل دولتهم نهضته الأخيرة على الرغم مـــن سوء ظروفهم السياسية وتكالب الأعداء عليهم من كـــل جانـــب، ولقد كانت عاصمتهم "غرناطة" الخالدة وما حولها واحة فواحـــة وجنة ناضرة بالحضارة والعلم والأدب، فسبحان الله كيف تم لهم ذلك؟ والهمج المتوحشون من (نصارى الإسبان) يشنون علـــيهم الغارات المتوالية صيفا وشتاء، وليلا ونهارا؟! وأهـــل مملكـــة (غرناطة الإسلامية) فى دفاع دائم وجلاد متواصل ؟!! ألا إنـــه العقل المتحضر والحس المرهف والعبقرية الخلاقـــة والنبـــوغ المحلق، وثمار إبداع غرسه الآباء والأجداد، وخلاصـــة تـــراث أسسه الأسلاف الماجدون !!

الفصل الثانى
الحياة الاجتماعية

إذا استثنينا أزمنة قليلة غشيت الأندلس فيه الفتن والفوضى نتيجة التمزق والتناحر ــ كعهد ملوك الطوائف ــ فمن الثابــت المؤكــد أن المجتمع الأندلسى فى سائر عهوده ومعظم مراحلة، وأغلب أجياله قــد نعم بأحوال اجتماعية طيبة صالحة،بل ممتازة باهرة، بل مثالية نادرة.

وأساس ذلك كله تأدب هذا المجتمــع بــآداب الإســلام وأخــذه بتوجيهات هذا الدين الحنيف فــى الســلم والحــرب، وفــى الحــدود والمعاملات، فى العبادات والأخلاق، ومزجه بــين المــادة والــروح، والفكر والعاطفة، والعمل للدنيا والآخرة، بحيث لا يطغى بعضها على بعض، بل فى انسجام وتكامل . نعم هذا المجتمع بالعــدل والتســامح والأخوة والمساواة والعزة والكرامة، والاســتقرار والأمــن ورعايــة الطفولة وأخذ الناس فى أمور دنياهم ومعاشهم بحظ موفور .

واستغلت إمكانات البلاد الواســعة أفضــل اســتغلال وتحســنت الأحوال الاقتصادية فتقدمت الزراعة وأقيمت القناطر والجسور علــى الأنهار، ونهضت الصناعات وراجت التجارة، وعم الرخــاء وانتشــر العمران، وزاد عدد السكان وازدهرت العلوم والفنون وقامت الحضارة ونعم الناس بأكرم حياة وأرغد عيش . وخير ما يوضح ذلك المقارنــة بين حياة المجتمع الأندلسى وحيوات جيرانه من المجتمعات الأوربيــة فى (فرنسا) و(ألمانيا) وغيرهما فى تلك الحقبة من التاريخ، وأصــدق

المقارنة وأفضلها ما جاء على ألسنة مؤرخين منصفين — من غير المسلمين — ومن الأوربيين أنفسهم كتلك التى جاءت على لسان الطبيب والمؤرخ الأمريكى (فيكتور ربنصون) فى أحد مؤلفاته: "كانت (أوربا) فى ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت (قرطبة) (*) تضيئها المصابيح العامة، كانت (أوربا) قذرة بينما شيدت قرطبة (ألف حمام) (١) كانت (أوربا) تغطيها الهوام بينما كان أهل (قرطبة) مثال النظافة، كانت (أوربا) غارقة فى الوحل بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع، كان سقوف القصور فى (أوربا) مملوءة بثقوب المداخن، بينما قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة، وكان أشراف (أوربا) لا يستطيعون — لجهلهم — التوقيع بأسمائهم بينما كان أطفال (قرطبة) العربية يذهبون إلى المدارس وكان رهبان أوربا يلحنون فى تلاوة سفر الكنيسة، بينما كان معلمو (قرطبة) قد أسسوا مكتبة تضارع فى ضخامتها مكتبة (الإسكندرية) العظيمة.

(وراجع كتاب الإسلام ونهضة الاندلس للأستاذ أحمد مظهر العظمة).

ومن يتصفح كتاب (نفح الطيب) للشيخ (أحمد المقرى) فى تراجمه للعلماء والقضاة والأمراء يجد أعاجيب من صلاحهم وتقواهم

(*) وأخواتها من مدن الأندلس.

(١) المراد بها (الحمامات العامة) وهذه غير الخاصة التى فى المنازل والدور والقصور ونزيد على ذلك أنه كان بقرطبة ثلاثة آلاف مسجد وسبعمائة مدرسة. غير حلقات العلم فى المساجد الجامعة. وقس على (قرطبة) سائر مدن الأندلس (كإشبيلية) و(غرناطة) وغيرها.

وورعهم تدل على صدق إيمانهم وقوة امتثالهم لشرع ربهم ولـــم يكـــن (العامة) أقل منهم فى ذلك بل كانوا متمسكين بأهداب الـــدين شـــجعانا رقباء على الحكام إن انحرفوا "ينكرون التهاون بتعطيل الأحكـــام فلـــو تهاون سلطان فى ذلك دخلوا عليه قصره المشيد، لا يعبـــأون بخيلـــه ورجله حتى يخرجوه من بلدهم وهذا كثير فى أخبارهم"[١].

وكان لهذه الحياة الاجتماعية الكريمة أثرهـــا فـــى الأدب شـــعره ونثره كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

على أنه لا ينبغى أن نغفل مع ذلك وجود انحراف فـــى بعـــض أفراد طبقات المجتمع من المترفين والشعراء الذين ألفوا حيـــاة الدعـــة ومالوا إلى الغناء والمجون والخمر لكنهم كانوا قلة .

---

(١) نفح الطيب جـ٢ صـ١٠٥ طبع دار المأمون .

الفصل الثالث
الحياة العقلية والحركة العلمية

بعد أن أسست (اللغة العربية) قواعدها فى بلاد الأندلس، أخـذت فى تثبيت أركانها، وتشييد بنيانها الشامخ العمـلاق، وتعهـد دوحتهـا الوارفة المزدانة بكل فروع العلم والمعرفة، وقـد اسـتمدت الأنـدلس علومها العربية من (الشرق الإسلامى) بطبيعة الحال[١]، وقد دخلها مع الفتح مجموعة من (التابعين) تلاميذ صحابة (الرسول) ﷺ نشروا فيهـا علوم (القرآن الكريم) و(الحديث الشريف) والفقه، ثم وفد إليها علمـاء مشرقيون ساعدوا على رواج تلك العلوم إلى جانب (علوم اللغة)، ونشأ تلاميذ لهؤلاء وهؤلاء من ناشئة الأندلس وأبناء الفاتحين، ثـم كانـت هناك رحلات من طلاب الأندلس إلى المشرق العربى فـى (مصـر) و(الشام) و(العراق) وما إليها ينهلون ويستزيدون ويعودون إلى الأندلس معلمين ومدرسين ومؤلفين، ثم كانت هناك الفرصة السنوية فى (موسم الحج) ليلتقى (علماء الأندلس) بعلماء (المشرق الإسلامى) فيتبـاحثون ويتبادلون النظر والآراء فى المسائل العلمية المختلفة.

وكانت الأفضلية (لعلماء المشرق) فى أول الأمر، فهـم أسـاتذة الأندلسيين بلا شك ، ثم لم يلبث الأندلسيون أن خاضوا فى كل علـم، واستقلوا بأنفسهم، وساووا أساتذتهم (المشارقة) وباروهم، وربما بذوهم وفاقوهم فى بعض فروع العلم ونواحى النظر والفهم، وذلك بسبب مـا

---

(١) إذ هى امتداد له، ورافد من روافده.

جبلوا عليه من حب شديد للعلم وإقبال عجيب على تحصيله، ورغبة عارمة فى إتقانه، وإخلاص كبير فى نشره وتعليمه، يشهد لهم بذلك ما خلفوه من تراث ضخم، وكنوز نفيسة من الكتب والمصنفات فى شتى العلوم والفنون، مما سنضرب الأمثلة ببعضه الذى وصلنا[١] على الرغم مما فقد منه على أيدى الهمج من (النصارى الإسبان) ، حرقا وإتلافا عندما تغلبوا على البلاد (وهو الكم الأكبر والعدد الأعظم) مما يعد جريمة نكراء فى حق العلم والحضارة وخسارة فادحة للبشرية جمعاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ٠

أما (النهضة الأدبية) وهى الوجه الثانى (للحياة العقلية والفكرية) فحدث عنها ولا حرج، وسيأتى تفصيل لجوانبها قريبا بإذن الله وإليك الآن جانبا من النشاط العلمى فى البلاد الأندلسية وحركة العلوم المختلفة ما بين علوم (شرعية) و(لغوية) ، وعلوم (كونية ودنيوية)، مع ذكر أشهر رجالها المبرزين وأعلامها النابغين، من المؤلفين والشراح والمعلقين٠

١ـ فى العلوم الشرعية

أ – (تفسير القرآن الكريم)، وقد توجه إلى هذا العلم النبيل كثير من علماء الأندلس منهم الشيخ (عبدالرحمن بن بقى القرطبى) م٢٧٦هـ وابن مخلد الذى ألف فى التفسير سفرا جامعا نفيسا فريدا فى بابه حتى قال فيه الإمام "ابن حزم" "هو الكتاب الذى

---

(١) وما يزال كثير منه مخطوطا ينتظر من يحققه ويطبعه وينشره ٠

أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام مثله، لا تفسير ابن جرير الطبرى ولا غيره".

ب - ومنهم (الحافظ عبدالحق بـن عطيـة بـن غالـب الغرنـاطى المحاربى) المتوفى عام ٥٤٦هـ الذى سمى تفسيره (المحـرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) ومن مزاياه تمحيص ما أورده بعض المفسرين من (الإسرائيليات).

جـ - ومنهم (محمد بن أحمد الأنصارى الخزرجى) المتـوفى عـام ٦٧١هـ صاحب التفسير المشهور (بتفسير القرطبى) وهو مـن أعظم التفاسير وأنفسها[1] وهو الآن يطبع للمـرة الثانيـة فـى (مصر).

د - ومنهم "أبوحيان النحوى" (محمد بـن يوسـف الغرنـاطى) المتوفى عام ٧٤٥هـ صاحب "البحر المحيط" الذى هو أوفى التفاسير بالأعاريب.

فعلماء (الأندلس) أسهموا بجهد عظيم نافع فى هذا العلم الكـريم وخدموا الكتاب العزيز خدمة كبرى، وكانوا فى مقدمة مـن خلصـوا التفسير من الروايات الضعيفة والأخبار الواهية كما عنوا ببيان الأحكام وتفسير آياتها واستفرغوا فى علم التفسير غاية جهدهم حتى لقـد بلـغ

---

(١) أغلاها وأعلاها قدرا.

تفسير بعضهم وهو الشيخ أبوبكر العربى المسمى "أنوار الفجر" ثمانين مجلدا[١].

٢ـ علوم الحديث النبوى

برع كثير من علماء التفسير فى علم الحـديث أيضـا (روايـة ودراية) [٢] فمنهم (بقى بن مخلد) الذى سبق ذكره والذى يقـول (ابـن حزم) عن تضلعه[٣] فى أحاديث رسول الله ﷺ ، ومنزلته فى علومه ، وإذا سمينا (بقى بن مخلد) لم نسابق به إلا (البخارى) و(مسلما) وهمـا شيخا المحدثين فى العالم الإسلامى، ومن علماء الحـديث الأندلسـيين المبرزين[*] (الحافظ بن عبدالبر) المتوفى عام ٤٦٣هـ . وهو (يوسف بن عبدالله) ﷺ ، وفيه يقول (ابن حزم) "لا أعلم فى فقه الحديث مثلـه أصلا، فكيف أحسن منه؟" وله كتاب (التمهيد لمـا فـى الموطـأ مـن المعانى والأسانيد) فى سبعين جزءا[٤] وله الكتاب النفيس (الاسـتيعاب فى معرفة الأصحاب) [٥] ومنهم الحافظ الحميدى (محمـد بـن فتـوح الأزدى) المتوفى عام ٤٨٨هـ . ومن كتبه (الجمع بين الصـحيحين) ومنهم (القاضى عياض) المتوفى عام ٥٤٤هـ صاحب كتاب (الشـفا

---

(١) راجع (الإسلام ونهضة الأندلس) صـ٢٤ .
(٢) (الرواية) ما يتعلق بنصوص الأحاديث و(الدراية) : مـا يتعلـق بالأسـانيد ونقدها (مصطلح الحديث) .
(٣) تبحره وتمكنه .
(*) المتفوقين .
(٤) الأدب الأندلسى للشيخين (حامد مصطفى وعبدالجواد رمضان) .
(٥) فى التعريف بصحابة رسول الله ـ ﷺ ـ .

بحقوق المصطفى) [١] ومنهم الحافظ ابن دحية (عمـــر بـــن الحســـين البلنسى) م٦٣٣هـــ. صاحب كتاب (التنوير) فى مولد السراج المنير)، وتعدت العناية بالحديث ــ المدن إلى القرى فكان يشـــترط فـــى فقيـــه القرية ومفتيها أن يكون حافظا (لموطأ الإمام مالك) ﷺ . فمـــا بالـــك بكبار المحدثين وأساطين الفتوى؟ وكان من أثر تضلع علماء الأنـــدلس فى الحديث أن كانوا فى طليعة من حاربوا البدع والمحدثات وحفظـــوا للدين نقاءه. ومن المشهورين فى ذلك من علمائهم (أبوبكر بن العربى) و(أبوأسامة الشاطبى) و(أبوبكر الطرطوشى) .

٣ـ علم الفقه

لما ظهر (أئمة الفقه) فى (المشـــرق)، وصـــل علمهـــم وبعـــض تلاميذهم إلى (الأندلس) فدخل أولا أحد أصحاب (الإمـــام الأوزاعـــى) ونشر مذهبه هناك، ثم رحل فريق مـــن (الأندلســـيين) إلـــى (المدينـــة المنورة) وجلسوا إلى الأمام (مالك) وتتلمذوا عليه، وتفقهوا على مذهبه ثم نقلوه إلى (الأندلس) فذاع وانتشر وغطى على ما سواه، وأخـــذ بـــه القضاة والمفتون طول عهد المسلمين بالأندلس، على أن مـــن علمـــاء الأندلس من وصل إلى درجة (الاجتهاد) فى الفقه فمنهم (القاســـم ابـــن محمد) والقاضى (منذر بن سعيد البلوطى) و(ابن حـــزم) (علـــى بـــن أحمد) المتوفى عام ٤٥٦هـــ زعيم مذهب الظاهرية فـــى (الانـــدلس) وصاحب كتاب (المحلى) الذى أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن

---

(١) وهو كتاب نفيس مشهور فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام .

بعدهم والحجة لكل منهم أو عليهم ودافع عن مذهب الظاهريـــة دفاعـــا قويا، و(ابن رشد الحفيد) (محمد بن أحمد بن محمد) م٥٩٥هـ قاضـــى الجماعة (بقرطبة) وله كتاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) ذكر فيـــه أسباب الخلاف بين الفقهاء وأدلة كل منهم، وبلغت تآليفه ــ فيما يقـــال ــ عشرة آلاف ورقة، وألف الأندلسيون أيضا فى علم (أصول الفقـــه)، ومن ذلك كتاب (إحكام الفصول فى علم الأصول) (لأبىالوليد البـــاجى سليمان بن خلف) م٤٧٤هـ ، وكتاب (تقريب الوصـــول إلـــى علـــم الأصول) لابن جزى، وكتاب (الأحكام) لابن حزم، وكتاب (الموافقات) (لأبىإسحاق الشاطبى)، وهو من الكتب المشهورة فى هذا العلم.

ب ـ فى العلوم اللغوية

١ ـ علم القراءات

كما نبغ علماء (الأندلس) فى علم القـــراءات القرآنيـــة حتـــى إن بعضهم خلدت أسماؤهم وما زالت تكتب فى (المصاحف) حتى اليوم.

ومن مشاهير قرائهم (أبوعمرو الدانى) [١] عثمـــان بـــن ســـعيد م٤٤٤هـ المعروف فى زمانه (بابن الصيرفى)، والـــذى رحـــل إلـــى المشرق، وأقام (بمصر) وأخذ عن شيوخها وبرز فى هذا العلم حتـــى صار أستاذ الأستاذين، وشيخ المقرئين، ومنهم الإمـــام (الشـــاطبى) [٢] الشهير م٥٩٠هـ، صـــاحب المنظومـــة المشـــهورة فـــى القـــراءات (بالشاطبية) ــ أو (حرز الأمانى ووجه التهانى) التى لا تزال مرجـــع

(١) نسبة إلى (دانية) إحدى ثغور (شرق الأندلس) .
(٢) نسبة إلى (شاطبة) إحدى مدن (شرق الأندلس) .

القراء حتى عصرنا الحاضر ، ومنهم (ابن مالك) صاحب (الألفية) المشهورة فى (النحو)، وقد كان متبحرا فى علم القراءات وله فيه منظومة (دالية) ومنظومة (لامية) فى غاية الإبداع والإتقان.

٢ ـ علم اللغة والمعاجم

وبرع فيه كثير من علمائهم فمنهم (ابن القوطية محمد بن عمر الإشبيلى) م٣٦٧هـ . الذى شهد له الأديب الكبير (أبوعلى القالى) صاحب (الأمالى) المشرقى الذى وفد على الأندلس وأقام بها وفيها توفى ودفن، ولابن القوطية كتاب (الأفعال) ومنهم (أبوبكر الزبيدى محمد بن الحسن) م٣٧٩هـ . صاحب كتاب (مختصر العين) [١]، ومنهم (ابن سيدة على بن إسماعيل الضرير) المتوفى عام ٤٥٨هـ . صاحب كتاب (المحكم) وكتاب (المخصص) وهما مرجعان نفيسان فى علم اللغة.

---

(١) العين: هو اسم أول (معجم) فى اللغة العربية، ومؤلفه هو (الخليل ابن أحمد) علامة العرب ونابغتهم المتوفى عام ١٧٥هـ ، مخترع علم العروض وقد أحصى الخليل فى كتابه (العين) ألفاظ اللغة العربية، ورتبها على حسب مخارج الحروف، فكان به مبتكرا، ورائدا اتبعه مؤلفو المعاجم من بعد.

علم النحو والتصريف

وقد أتقنه ونبغ فيه عدد جم من علماء الأندلس ولهم فيه باع طويل وكانت لهم فيه إضافات وآراء صائبة ما زالت تدرس حتى اليوم ومن مشهوريهم فى هذا العلم (ابن الطراوة سليمان بن محمد المالقى)[1] م٥٢٨هـ، صاحب كتاب (الترشيح والمقدمات على كتاب سيبويه)، ومنهم (ابن خروف أبوحسن على بن محمد الإشبيلى) المتوفى عام ٦١٠هـ. صاحب شرح (كتاب سيبويه) وكتاب (شرح الجمل للزجاجى)، ومنهم (أبوعلى الشلوبين) عمر بن محمد بن عمر الإشبيلى الأزدى المتوفى عام ٦٢٥هـ . صاحب (التعليق على كتاب سيبويه) والشروح على (الجزولية) ومنهم (ابن هشام الخضراوى)[2] م٦٤٦هـ صاحب كتاب (فصل المقال فى أبنية الأفعال) وكتاب (الإفصاح بفوائد الإيضاح) ومنهم (ابن عصفور) (على بن مؤمن الحضرمى الإشبيلى) م٦٦٣هـ صاحب كتاب (الممتع فى التصريف) وله أكثر من شرح على (الجمل للزجاجى) ــ ومنهم العلامة الأشهر صاحب الصيت الذائع والذكر الخالد (ابن مالك الأندلسى) وهو (جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك الطائى الجيانى) نزيل (دمشق) والمتوفى بها عام ٦٧٢هـ . صاحب (الخلاصة) أو (الألفية) وصاحب (الكافية) و(التسهيل) وغيرهم كثير ٠

---

(١) نسبة إلى (مالقة) مدينة فى جنوبى الأندلس٠
(٢) نسبة إلى (الجزيرة الخضراء) مدينة فى جنوبى الأندلس ٠

جـ- علوم الأدب

وقد تفوق فيها العدد الكبير والكثرة الكاثرة من أهل العلم في الأندلس لميل طباعهم إليه وشغفهم به فمنهم الأديب البارع والشيخ الجليل (أحمد بن محمد بن عبدربه) القرطبى الأندلسى المتوفى عام ٣٢٨هـ . صاحب (العقد الفريد) أحد المصادر المعدودة فى التاريخ الأدبى والأخبار والنوادر على مستوى الأدب العربى كله، ومنهم (أبوعلى القالى المشرقى) الوافد على بلاد الأندلس والمتوفى بها عام ٣٥٦هـ . صاحب كتاب (الأمالى) الذى أملاه فى مسجد (قرطبة) وهو موسوعة أدبية قيمة[١] ـ ومنهم (الفتح بن خاقان) محمد بن عبيدالله الإشبيلى م٥٢٩هـ صاحب كتاب (قلائد العقيان) وكتاب (مطمح الأنفس وسر التأنس فى مدح أهل الأندلس) وكلاهما فى التراجم الأدبية، والفرق بينهما أن (القلائد) فى تراجم أهل عصره والثانى غير مقيد بهذا القيد ٠

ومنهم (على بن بسام الشنتريني) المتوفى عام ٥٤٢هـ صاحب كتاب (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة)، وهو من أوفى المراجع فى (الأدب الأندلسى)وفيه موازنات أدبية ونصوص كثيرة شعرية ونثرية٠

ومنهم (أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكرى) [٢] م٤٨٧هـ. صاحب كتاب (اللآلى شرح أمالى القالى) و(أبوالصلت أمية بن

---

(١) فأبوعلى القالى وإن كان مشرقى الأصل إلا أنه أندلسى الهجرة والوفاة، وفى (الأندلس) ألف ودون أعظم آثاره، وهو كتاب (الأمالى) ٠

(٢) (م) تعنى: المتوفى بتشديد الفاء المفتوحة، (ع) تعنى: (عام) أى سنة٠

عبدالعزيز الدانى) م٥٢٩هـ ـ صاحب كتاب (الحديقة) وقد ألفه على غرار كتاب (اليتيمة) للثعالبى، و(الحافظ بن دحية عمر بن الحسين) م٦٢٣هـ صاحب كتاب (المطرب من أشعار أهل المغرب) ـ و(ابن هانئ اللخمى) م٧٣٣هـ. صاحب كتاب (الغرر الطالعة فى شعراء المائة السابعة)٠

ومنهم (لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبدالله) المتوفى عام ٧٧٦هـ صاحب كتاب (الإحاطة بأخبار غرناطة) وله أيضا كتاب (الكتيبة الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) وهما مرجعان نفيسان قيمان٠

د ـ علم التاريخ

بدخول المسلمين (الأندلس) بدأ تاريخ جديد لها مشرق وضاء، وكان لابد من مرور مدة ليكتب علماؤها النشطون تاريخها المجيد، وهو تاريخ متعدد المراحل والدول كما رأينا، حافل بالشخصيات اللامعة فى شتى المجالات، وقد اتسع ما كتبه مؤرخو الأندلس لأنواع عدة من التواريخ كتراجم الولاة والملوك، والقضاة والعلماء وتواريخ الدول وتواريخ العلوم ٠

وقد اهتم كثير من (السمتشرقين الأوربيين) ولاسيما (الإسبان) منهم بتتبع الحركة التاريخية فى (الأندلس الإسلامية) ومن أشهرهم (جنثالث بالنثيا) وقد نقل عنه نبذة صالحة الأستاذ (أحمد مظهر العظمة[1])، ومما لا شك فيه أن نكبة (المكتبة الأندلسية) التى صاحبت

---

(١) راج (الإسلام ونهضة الأندلس) صـ٣٣ ٠

نكبة ضياع الأندلس الإسلامية وضياع أغلب الكتب التى دبجتها براعات[1] المؤلفين الأندلسيين فى شتى الفنون كان لها أثرها البالغ فى فقد الكثير من (المراجع التاريخية) فمن أقدم من عرفنا من مؤرخى الأندلس (عبدالملك بن حبيب) المتوفى عام ٢٣٨هـ. والملقب (بعالم الأندلس) ولم يعرف من مؤلفاته إلا كتاب (التاريخ) ومنه نسخة مخطوطة فى مكتبة (أكسفورد) فى (بريطانيا) ٠

ومنهم (أحمد بن محمد بن موسى الرازى) المتوفى عام ٣٢٤هـ. وكان لاهتمامه بالتواريخ يسمى (التاريخى) وله كتاب فى (أخبار ملوك الأندلس وغزواتهم) وآخر فى (أنساب مشاهير أهل الأندلس) وثالث فى (كبار الموالى الأندلسيين) ومنهم (أبوبكر بن القوطية) المتوفى عام ٣٦٧هـ . وله كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس)٠

ومنهم (عريب بن سعد) المتوفى عام ٣٤٩هـ . وقد ألف مختصرا لتاريخ (الطبرى) وزاد عليه أخبار (المغرب والأندلس) ومن أهمهم (أبوعامر بن شهيد) المتوفى عام ٣٩٢هـ . الذى ألف كتابا ضخما فى التاريخ يقع فى (مائة جزء) جعله على طريقة الحوليات وروى فيه الأحداث سنة بعد سنة بادئا من عام أربعين للهجرة، وهذا الكتاب مفقود حتى الآن ٠

ومن أشهر المؤرخين (ابن حيان) المتوفى عام ٤٦٩هـ صاحب كتاب (المقتبس) و(المبين) و(صاعد الطليطلى) صاحب (التاريخ العام)

---

(١) جمع (يراع) وهو القلم ٠

و(الحافظ الحميدى) (محمد بن فتوح الأزدى) المتوفى عـام ٤٨٨هـ صاحب كتاب (جذوة المقتبس فى أخبار علماء الأندلس) •

ومن أهم كتب التاريخ الأندلسية بعد ذلك كتاب (الصلة) (لابن بشكوال) [1] فى تاريخ أدباء الأندلس وعلمائها، والذى جعله كالذيل لكتاب (تاريخ علماء الأندلس) (لابن الفرضى) [2]•

وأعظم المؤرخين فى أواخر أيام الأندلس الإسلامية (لسان الدين بن الخطيب) الوزير العالم الأديب المتوفى عـام ٧٧٦هـ صاحب المرجع النفيس (الإحاطة بتاريخ غرناطة) الذى سبقت الإشارة إليه — وهو ما يزال مخطوطا فى إحدى مكتبات إسبانيا وله فى التاريخ أيضا كتاب (الحلل المرقومة) وكتاب (اللمحة البدرية فى الدولة النصرية) وهى (دولة بنى الأحمر) وكتب أخرى تاريخية طريفة•

ومما يذكر لعلماء الأندلس سبقهم إلى الكتابة فى (تاريخ الأديان) ورائدهم فى ذلك الإمام (ابن حزم) فى كتابه القيم (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) وقد نشر هذا الكتاب فى القاهرة عام ١٣٢١هـ — ١٩٠٣م ، وترجم إلى اللغة الأسبانية•

---

(١) هو أبوالقاسم (خلف الخزرجى القرطبى) المتوفى عام ٥٧٨هـ •

(٢) هو القاضى أبوالوليد (عبدالله) [عن كتاب إعجام الأعلام للشيخ (محمود مصطفى) رحمه الله] •

هـ- علم الجغرافية والرحلات وتقويم البلدان

الأندلس بلاد واسعة مترامية الأطراف، وقد استدعى التنقل فيها للغزو أو التجارة أو السفارة وصف بلدانها وأوديتها وجبالها وأنهارها.

كما أن ارتباط مسلمى (الأندلس) (بفريضة الحج) دعاهم إلى السفر والرحلة إلى أرض الحجاز واختراق الأقطار فى طريقهم إليها برا وبحرا فى الذهاب والعودة . وقد عنى كثير من علمائهم بتسجيل مشاهداتهم ووصف ما مروا عليه من بلدان، كما أغرى حب الارتحال فريقا منهم بالتوسع – والسياحة فى الأرض والقيام برحلات استكشافية وتدوين ما حصلوه من معلومات عنها فظهرت الكتب فى هذا العلم ومن المؤلفين فى هذا الباب(العبدرى) و(البكرى) و(أبوحامد الغرناطى) و(ابن جبير) صاحب الرحلة المشهورة فى القرن السادس الهجرى[1]، و(الشريف الأدريسى الصقلى) ٥٤٨هـ صاحب المؤلف النفيس (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) والذى ذكر فيه نبأ (الأخوة المغرورين) **الذين خرجوا فى بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) بسفينة لهم بقصد اكتشاف ما وراءه من أرض الله وكانت رحلتهم هذه إرهاصا باكتشاف (القارتين الأمريكيتين) فيما بعد.**

ولا ننسى الإشارة إلى أحد مؤلفات (أحمد بن محمد الرازى) المؤرخ الذى سبق ذكره وهو كتاب (صفة (قرطبة) وخططها) وأحد

---

(١) الثانى عشر الميلادى .

مؤلفات (لسان الدين بن الخطيب) العالم الأديب المتعدد الجوانب الذى سبق ذكره أيضا ـ وهو (معيار الاختيار فى المعاهد والديار) الذى وصف فيه مدينتين عظيمتين من مدن الأندلس هما (مالقة) و(سلا) وفاضل بينهما ٠

و- العلوم الكونية والتجريبية

الإسلام يدعو أبناءه إلى الإلمام بكل أنواع العلم سواء منها ما يتعلق (بالدين) : أصوله وفروعه، وما يتعلق (بالدنيا) وصلاحها والأرض وعمرانها ـ فإذا كان تحصيل العلوم الدينية الأساسية (فرض عين) على كل مسلم ومسلمة فإن تحصيل كل فرع من فروع العلوم الدنيوية (فرض كفاية) يجب أن يحوزه فريق من المسلمين وإلا أثموا جميعا٠

وهذا ما فهمه أهل الأندلس وعملوا به وشجعهم عليه خلفاؤهم وأمراؤهم، فكما تبحروا فى العلوم (الدينية واللغوية) ـ اتجهوا إلى العلوم (الدنيوية والكونية) والتجريبية التى بها صلاح الحياة وتقدم العمران فجمعت حضارتهم بين الدين والدنيا والروح والمادة وهذه أمثلة موجزة لما برعوا فيه من (النوع الثانى) ، وكانت لهم فيه مدارس مكينة ـ بعد أن قدمنا أمثلة لما برعوا فيه من (النوع الأول) ـ ٠

١- الرياضيات والفلك :

كان الخليفة الأموى والأندلسى (الحكم المستنصر) بن الخليفة (عبدالرحمن الناصر) محبا لهذا النوع من العلوم مشجعا للعلماء على

تعاطيه مشتغلا به معهم، ميسرا لهم ـــ بما كان يجلبه مـــن الكتـــب ـــ الإطلاع على كتب الأقدمين من (الإغريق) فيه، وترجمة المفيد منـــه[١] فظهر فى ذلك العهد العـــالم الأندلســـى الرياضـــى الفلكـــى (مســـلمة المجريطى) [*] م٣٩٤هـــ . وقد ترجم كتاب (قبة الفلك) (لبطليموس) ، وألف كثيرا من الكتب المفيدة فى الرياضة والفلك منها: (ثمـــار علـــم العدد) و(تعديل الكواكب) و(رسالة الإسطرلاب) [٢] وتخرج على يديـــه تلاميذ كثيرون منهم (أبوالسمح) والعلامة (أبوالقاسم أصبغ بن محمـــد المهرى الغرناطى) م٣٦٩هـــ . ومن تآليف الأخيـــر (المـــدخل إلـــى الهندسة)، وكتاب (ثمار العدد) و(طبيعة العـــدد) وكتابـــان عـــن آلـــة (الإسطرلاب) الأول عن صنعتها والثانى عن اســـتعمالاتها وفوائـــدها، وكتاب عن (زيج) [٣] خاص به ٠

٢ ـ الطب والجراحة والصيدلة

مهر الأندلسيون فى دراسة الطب ومزاولته وتقدمت علوم الطـــب على أيديهم تقدما مذهلا، ونبغ منهم أطباء عالميون يفخر بهـــم تـــاريخ الطب، وكان (الطبيب الأندلسى) يجمع فى تضلعه وبراعته بين الطـــب بأنواعه وبين الصيدلة فهو (طبيب باطنى وجراح وصيدلانى) فى وقت واحد ، ويعد أطباء الأندلس ـــ مع إخوانهم أطباء المشرق الإسلامى ـــ

---

(١) متشبها فى كل ذلك بالخليفة العباسى العظيم (المأمون بن الرشيد) ٠
(*) نسبة إلى (مجريط) وهى الآن (مدريد) عاصمة إسبانيا ٠
(٢) آلة فلكية قديمة ٠
(٣) الزيج مقياس حسابى فى علم الفلك القديم، وقد يختلف من عـــالم لآخـــر . ويتضمن جداول يعرف منها سير النجوم،ويستخرج بواسطتها تقويم كل سنة٠

فى العصور الإسلامية الأولى وما بعدها وعلى مدى يقرب من (عشرة قرون) أساتذة أوربا فى هذه العلوم وقد سبقوا إلى ما لم يعرفه الأوربيون إلا بعد مئات السنين من النظريات العلمية والتجارب العملية وعن مؤلفات الأطباء المسلمين أخذ أطباء (أوربا) ما بنوا عليه تقدمهم الحديث[١].

فمن أطباء الأندلس (سعيد بن عبد ربه) ابن أخى صاحب (العقد الفريد)، ومن مآثره ابتكار طريقة جديدة فى علاج (الحميات) بواسطة حبوب ركبها، وبرئ المرضى بتناولها، ومنهم (أحمد وعمر ابنا يونس بن أحمد الحرافى) وكان أولهما خبيرا فى تحضير (الأدوية)، والثانى بارعا فى علاج (أمراض العيون) ومن كبار الأطباء الصيادلة (أبوداود سليمان بن حسان بن جلجل) طبيب الخليفة (هشام المؤيد) فى القرن الرابع الهجرى وله مؤلفات طبية عظيمة منها كتاب (الترياق)٠

أما أعظم أطباء الأندلس فهو الطبيب العبقرى (أبوالقاسم الزهراوى) [وهو منسوب إلى مدينة (الزهراء) التى بناها الخليفة (عبدالرحمن الناصر) قرب (قرطبة)] . الذئ شرق ذكره وغرب وهو صاحب طريقة استخراج المياه من العين (الكاراكتا) بواسطة (إبرة طبية) ، وهو أول من كوى (البواسير)، وكوى (السرطان) وما حوله من عضلات وغدد، وأول من أجرى عملية (القيلة المائية) (وكان أول

---

(١) وحسبك أن كتب الطبيب والفيلسوف المسلم (ابن سينا م ٤٢٨هـ ١٠٣٦م وكتب أمثاله من أطباء الأندلس المسلمين ، ظلت عماد دراسة الطب فى (فرنسا) ستة قرون (٦٠٠ عام) أى إلى بدايات النهضة الحديثة، فهى أصل هذه النهضة وأساسها ٠

من أجراها من الأوربيين طبيب ألمانى بعد (الزهراوى) بثمانمائة عام [(٨٠٠) سنة] .

(والزهراوى) أول من ربط (الشرايين) ومنع (النـزف) وكـان يستخرج (الحصى) عن طريق القضيب بنجاح تام أما تآليفه ففى القمة ومنها كتاب (التعريف لمن عجز عن التأليف) وهو موسـوعة طبيـة نفيسة انتفع بها الناس فى عصره وبعد عصره، وتـرجم إلـى (اللغـة اللاتينية) [١] (والجزء الثلاثون) منه عن (الجراحة) وهو مـن أمهـات الكتب فى فن الجراحة، وقد ارتفع به الزهراوى فـى أعـين النـاس والأطباء إلى طبقة (أبقراط) و(جالينوس)، بل تفوق عليهما، ويحتـوى على رسوم الآلات الجراحية، وكان يقول : "يجب علـى الطبيـب أن يخلق لكل مرض عملية، وأن يبتكر لكل عملية آلـة جديـدة"، وبعـد الزهراوى تتابع الأطباء النابغون فى الأندلس فمنهم (فى القرن السادس الهجرى) (أبوالوليد بن رشد) الطبيب والفيلسـوف، وكتابـه العظـيم (الكليات) يتناول التشريح ووظائف الأعضاء والأمراض وأعراضـها والأدوية والأغذية وحفظ الصحة والعلاج ـ ومنهم طبيبان من أسـرة (زهر) هما (عبدالملك بن زهر) و(أمية بـن أبـىالعلاء بـن زهـر) م٥٥٧هـ الذى برع فى الطب الباطنى وألف فيه كتابـه (الاقتصـاد) وكتب كتابًا آخر فى (الأغذية والأدوية) وكتابا ثالثا فى (الطب العملى) تحرر فيه تماما من آراء الأقدمين (كجالينوس)، وأخذ بما تؤدى إليـه الملاحظة المباشرة. وبرع فى الطب والصيدلة بعض الـوزراء مثـل

(١) أصل معظم اللغات الأوربية الحديثة وهى اللغة (الرومانية القديمة).

(أبى المطرف عبدالرحمن الأندلسى) الذى اشتهر بعلم الأدوية المفردة، وكان لا يرى التداوى بأدوية إذا أمكن التداوى بالأغذية، فـإذا دعـت الضرورة للأدوية فلأن تكون (مفردة) خير من أن تكون (مركبة)، فإذا اضطر لم يكثر من التركيب.

ومن أطباء القرن السابع الهجرى الأفـذاذ (محمـد بـن أحمـد القرموطى المرسى) كان متضلعا فى اللغات إلى جانب تضـلعه فـى الطب ويعلم الطب بالعربيـة وغيرهـا ويعلـم (المسـلمين واليهـود والنصارى) على السواء فى بلده (مرسية) [١] ومما ذكره المؤرخـون أنه كان بالأندلس أربع جامعات للطـب فـى (قرطبـة) و(إشـبيلية) و(مرسية) و(طليطلة) وأنه كان بها من المعاهد العلمية والأدبية مـا لا يكاد يحصيه العد .

تعليق :

هذه قطرة من بحر عن (الحياة العقلية والحركة العلمية والفكرية) فى (العصور الإسلامية الأندلسية) يتبين منها مدى عظمتها وخصـبها واتساعها، وحركة لها هذه الصفات جديرة بأن تؤثر فى (الأدب) أعظم الآثار .

لقد أثبتت هذه الحياة العقلية النادرة، والحركة العلميـة الهـادرة، وجودها القوى المؤثر على الحياة والحضارة الإنسـانية ، باعتبارهـا

(١) الواقعة فى جنوب شرق الأندلس.

جزءا متينا، وركنا ركينا من بنيان الحضارة العربية الإسلامية التى أظلت العالم لأكثر من ألف عام٠

وفرضت تلكم (الحياة العقلية، والحركة العلمية الأندلسية) نفسها ، وتركت بصماتها الواضحة، وأنفاسها العبقة فى كل المجالات التى أشرنا إليها، وآتت ثمارها اليانعة التى انتفعت بها البشرية – وما تزال – إلى ما شاء الله، وسجل التاريخ لها ذلك كله فى صفحات زكية مشرقة، وأحرف نورانية مونقة٠

فن البناء والعمران :

وجدير بنا أن نضم إلى الحياة العقلية لمحة غاية فى الإيجاز عن (الحركة الفنية) لاسيما فى (البناء والعمران) لما كان لها من أثر كبير، وتفاعل قوى مع الأدب شعره ونثره، فقد بنى (مسلمو الأندلس) وأبدعوا أروع ما رأت البشرية من آيات الجمال المعمارى فى إقامة المدن والمساجد والقصور والقناطر والجسور، كمدينة (الزهراء) التى بناها (عبدالرحمن الناصر) وأكملها ولده (الحكم) فى (أربعين عاما) وكانت زينة الدنيا وغرة على جبين الدهر (قبل أن تعفو[1] آثارها بفعل المخربين)٠ ومثل (مسجد قرطبة) الكبير الذى هو أعظم مسجد فى العالم[2] والذى سلم جزء منه وبقى حتى اليوم[3] ليكون برهانا ساطعا على أوليته وتفرده، وقصور (بنىعباد) فى (إشبيلية) وبيوت بعض

---

(١) تزول وتمحى ٠

(٢) بشهادة كبار المهندسين قديما وحديثا ٠

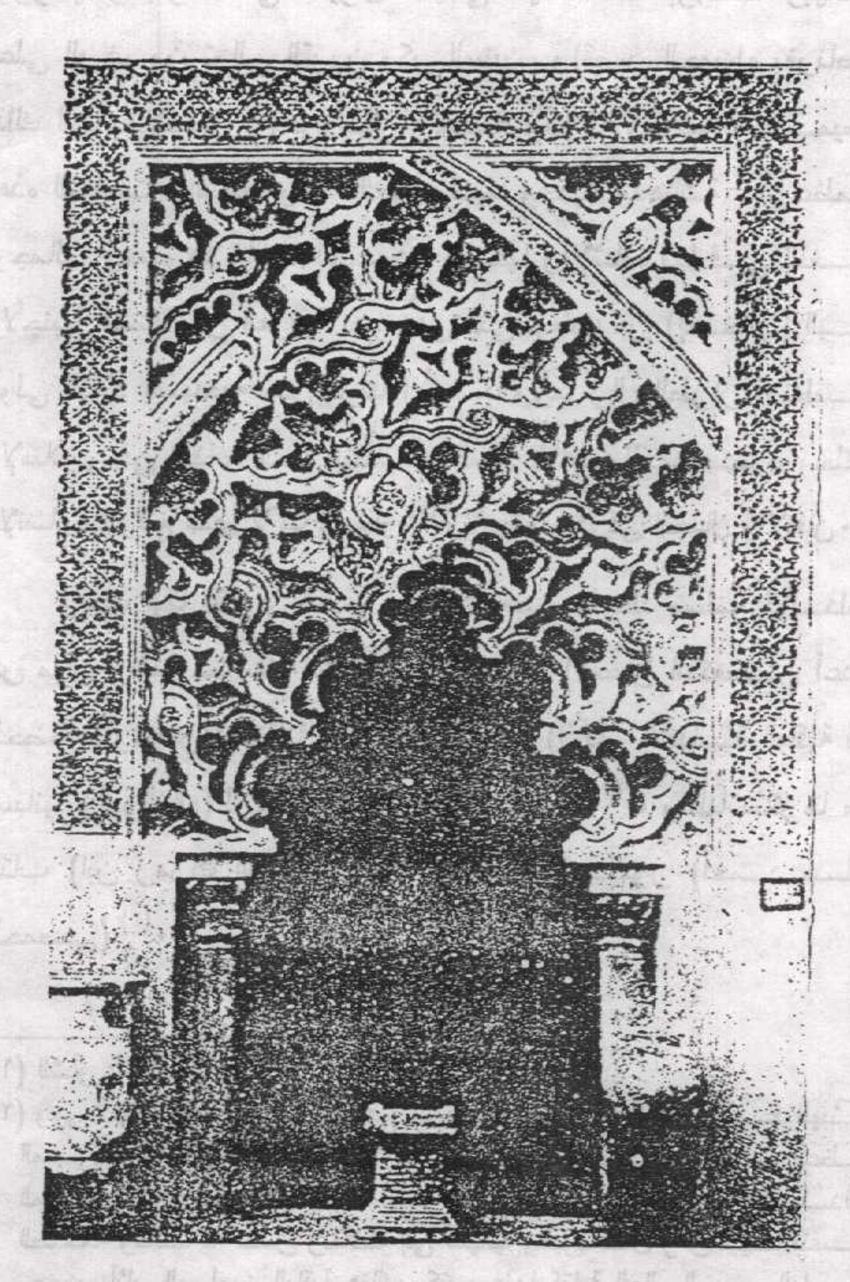
(٣) بعد التخريب الآثم الذى لحقه بعد استيلاء الإسبان على البلاد الأندلسية٠

وزرائها وتجارها التى ما يزال ما بقتى منها محتفظا برونقه وبهائه على الرغم من توالى القرون وكر السنين، و(قصر الحمراء بغرناطة) ذلك البناء الأسطورى فى أبنيته وأجنحته وأبوابه وموقعه وتصميمه. هذه المنشآت وأمثالها وقفت العقول قديما وحديثا مدهوشة أمام عظمتها وجمالها وسحرها وألفت الكتب فى وصفها والإشادة بها فى اللغات الأجنبية فضلا عن العربية — وهى التى جعلت من (إسبانيا) اليوم أولى البلاد السياحية على كرتنا الأرضية، وما زال الطراز الأندلسى الإسلامى فى البناء، القمة الشامخة والمثل الأعلى للمهندسين، وحلم الإنسانية الرائع الذى لا يدرك شأوه[١]،ولا يبلغ مداه فى الجمال والإتقان.

وإليك أيها القارئ الكريم صورا لبعض ما خلد مسلمو الأندلس من مبان رائعة مما سلم من تخريب نصارى الإسبان المتعصبين أعداء الحضارة والعمران، نقلنا أكثرها عن كتاب (الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال) للأستاذ (محمد عبدالله عنان) [٢] ، ونقلنا سائرها من كتاب (ابن زمرك الغرناطى: سيرته وأدبه) للدكتور (أحمد سليم الحمصى) [٣].

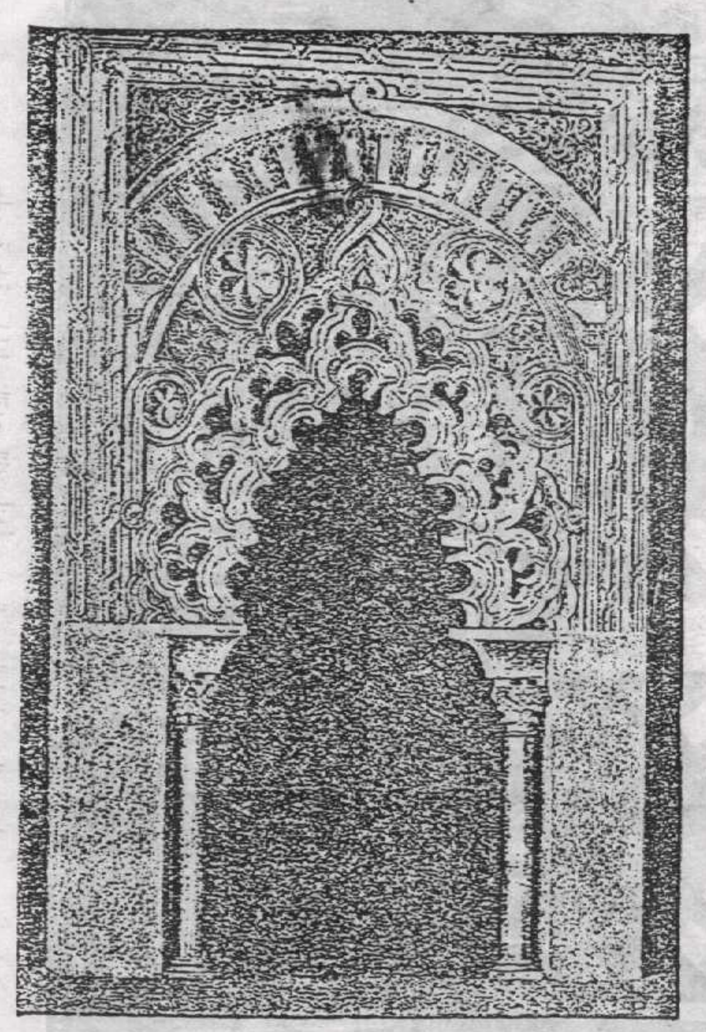
---

(١) الشأو : الغاية والأمد.
(٢) وهو الجزء الثامن من كتابه القيم (دولة الإسلام فى الأندلس) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٤٢٢هـ — ٢٠٠١م، وهذا المؤلف من أعظم المؤرخين فى العصر الحديث اهتماما بتاريخ الأندلس وألف فيه المجلدات الضخمة وكانت له خمس رحلات إلى أسبانيا والبرتغال رأى فيها بنفسه وصور آثار المسلمين الباقية هناك وكتب عنها كتابة العالم الخبير والباحث المجتهد .
(٣) طبع مؤسسة الرسالة — بيروت لبنان — عام ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م.

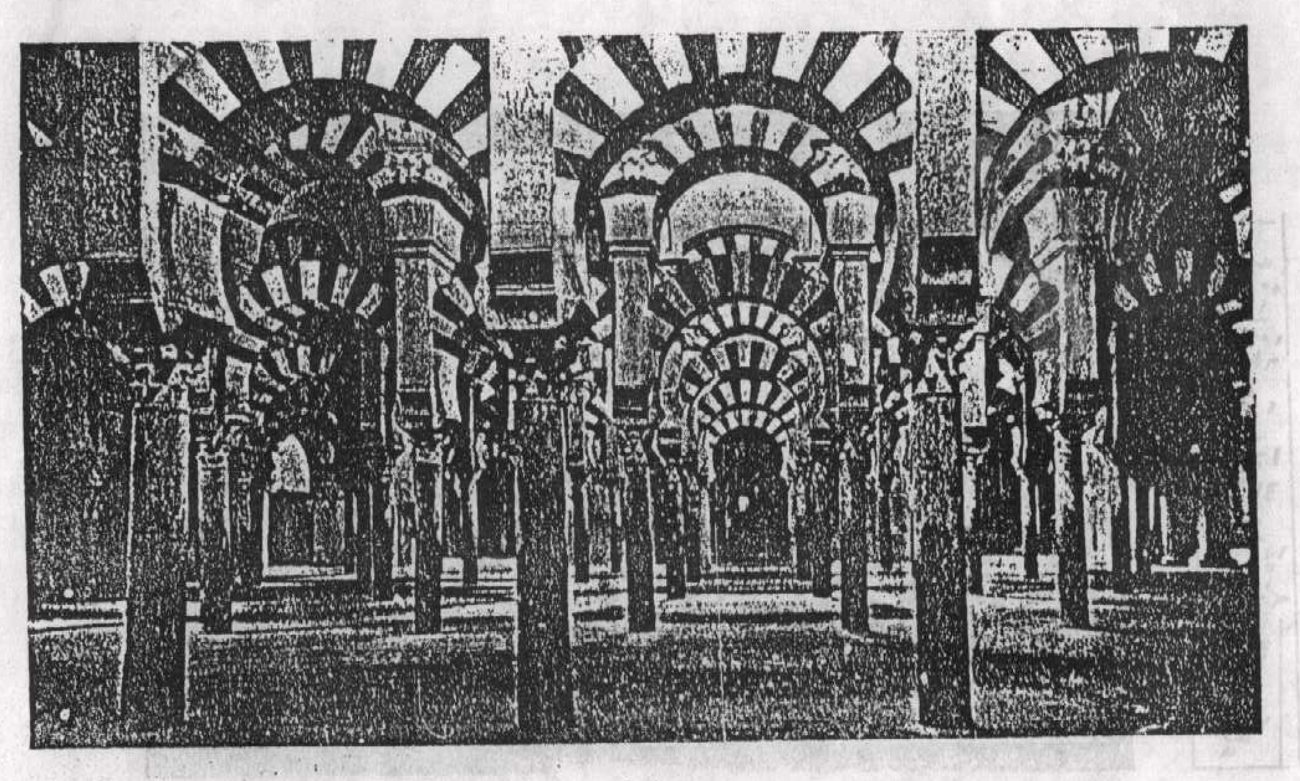


سرقسطة . عقد من عقود قصر الجعفرية (قصر بنى هود) محفوظة بمتحف مدريد الوطنى

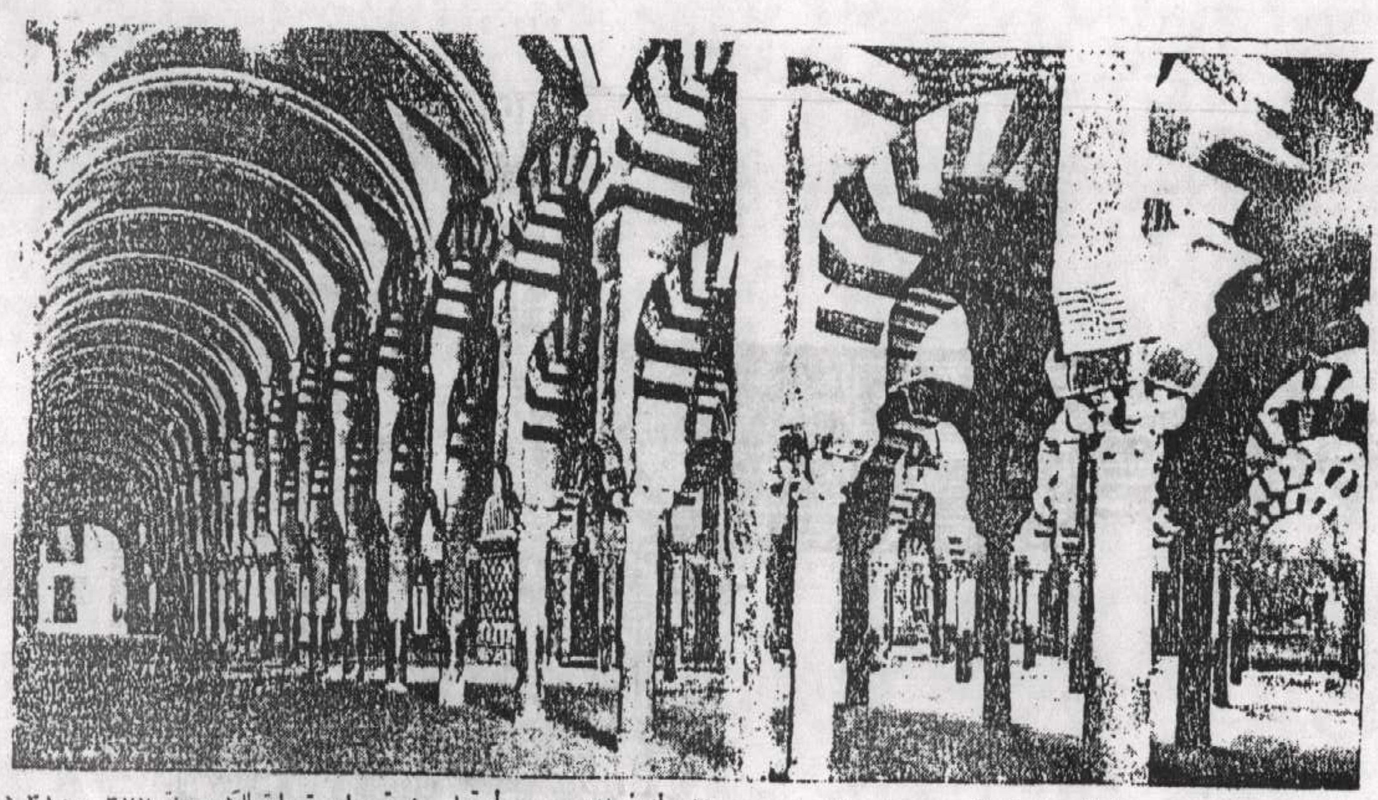
أَنْمَاذِجُ مِنَ الفَنِّ الأَنْدَلُسِيِّ فِي البِنَاء



عقد من عقود الجعفرية بِسَرَقُسْطَة (وهي بلدة
في شمال شرقِ الأندلس)



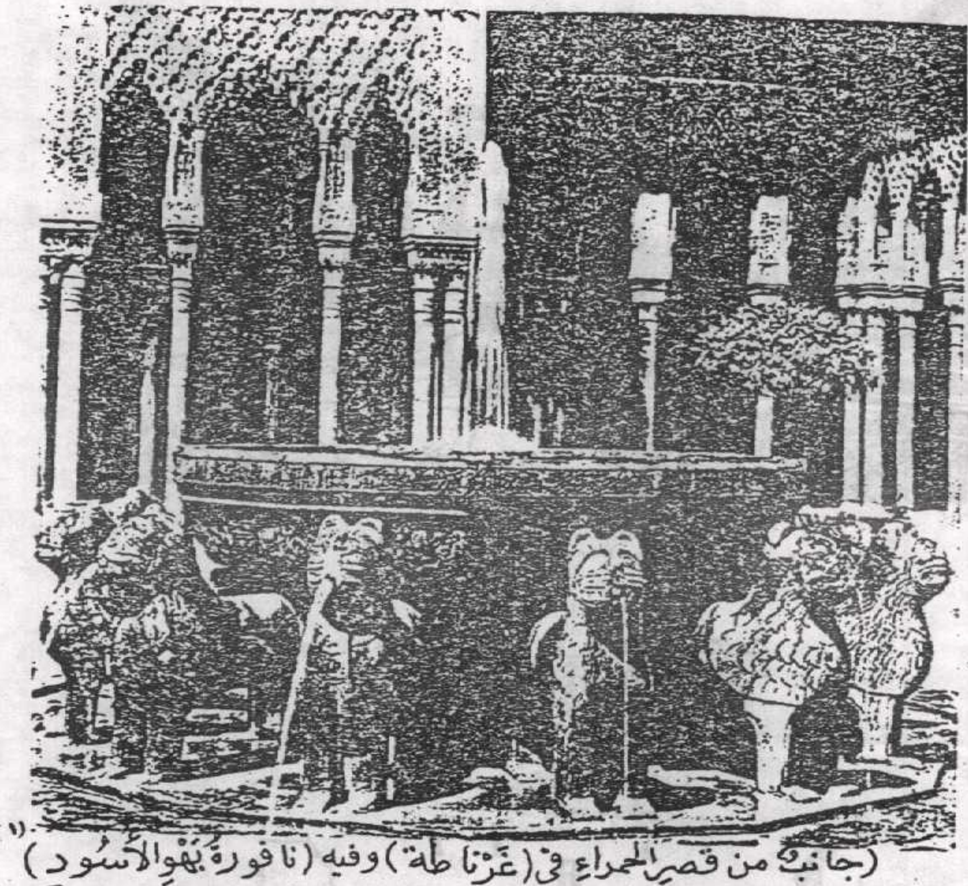
جامع قرطبة . الجناح القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وولده هشام
(سنة ١٧٠ - ١٧٧ هـ) (٧٨٦ - ٧٩٣ م)



قرطبة : المسجد الجامع . الجناح الشرقي المسمى « جامع المنصور » ، الذى أنشأه المنصور بن أبي عامر شرقي جامع قرطبة الكبير سنة ٣٧٧ - ٣٨٠ هـ
(٩٨٧ - ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم .



إشبيلية . منارة المنصور أو « الخير الدا » La Giralda وهى الآن
برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى



(جانبٌ من قصرِ الحمراءِ في (غَرْناطة) وفيه (نافورةُ بَهْوِ الأسُودِ) [١]

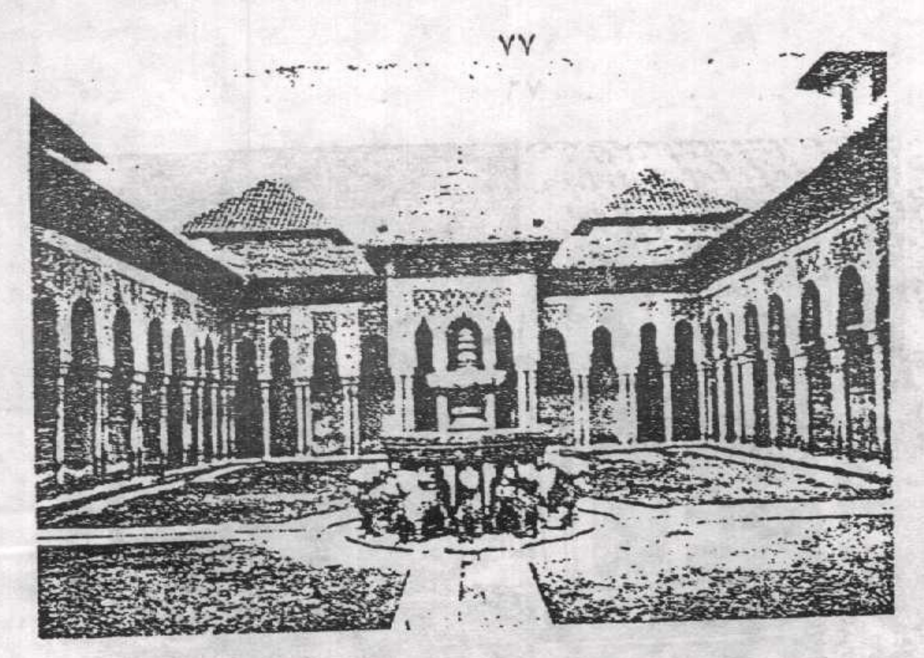
«ومَنْحُوتَةٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ شَفَّ نُورُهَا — تُحَلِّي بِمُرْفَضِّ الجُمَانِ النَّوَاحِيَا
يَذُوبُ لُجَيْنٌ سَالَ بَيْنَ جَوَاهِرٍ — غَدَا مِثْلَهَا فِي الْحُسْنِ أَبْيَضَ صَافِيَا
تَشَابَهَ جَارٍ لِلْعُيُونِ بِجَامِدٍ — فَلَمْ نَدْرِ أَيًّا مِنْهُمَا كَانَ جَارِيَا»

(من قصيدة (لابن زمرك) نُقش منها اثنا عشر بيتاً حول استدارة البركة الرخامية فوق رؤوس (اثني عشر أسداً) وفي الصورة نلاحظ الأبيات منقوشة ولكنها غير مقروءة. وقد نُقش البيتان الثاني والثالث فوق الأسدين الظاهرين في الوسط.

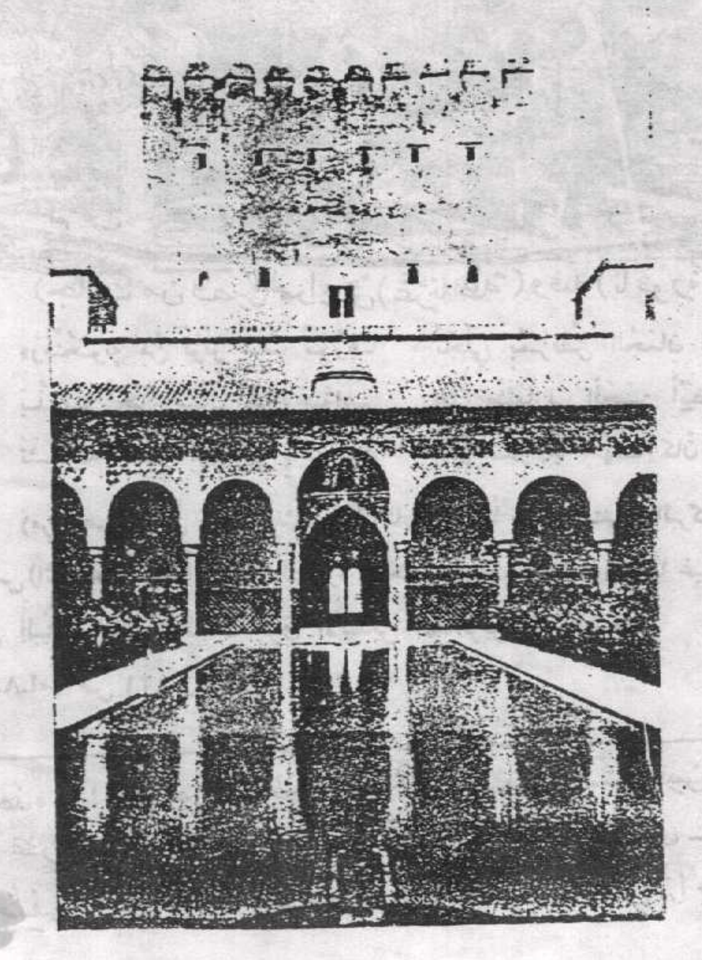
«I.A.G.»، ص ١٢١ و ١٢٢).

---

(١) - وهذه النافورة مِنْ روائعِ الفنِّ الأندلسيِّ، والأُسودُ مِنَ (المرمرِ) البديعِ، والماءُ يَخرجُ مِنْ أَفواهِهَا كأنّها تمجُّهُ في منظرٍ عجيبٍ - وقد تفنَّنَ الشعراءُ في وَصْفِها، ومنهمْ الشاعرُ (ابنُ زُمْرَكَ) الغرْناطيّ.



الحمراء . منظر عام لفناء الأسود ونافورته

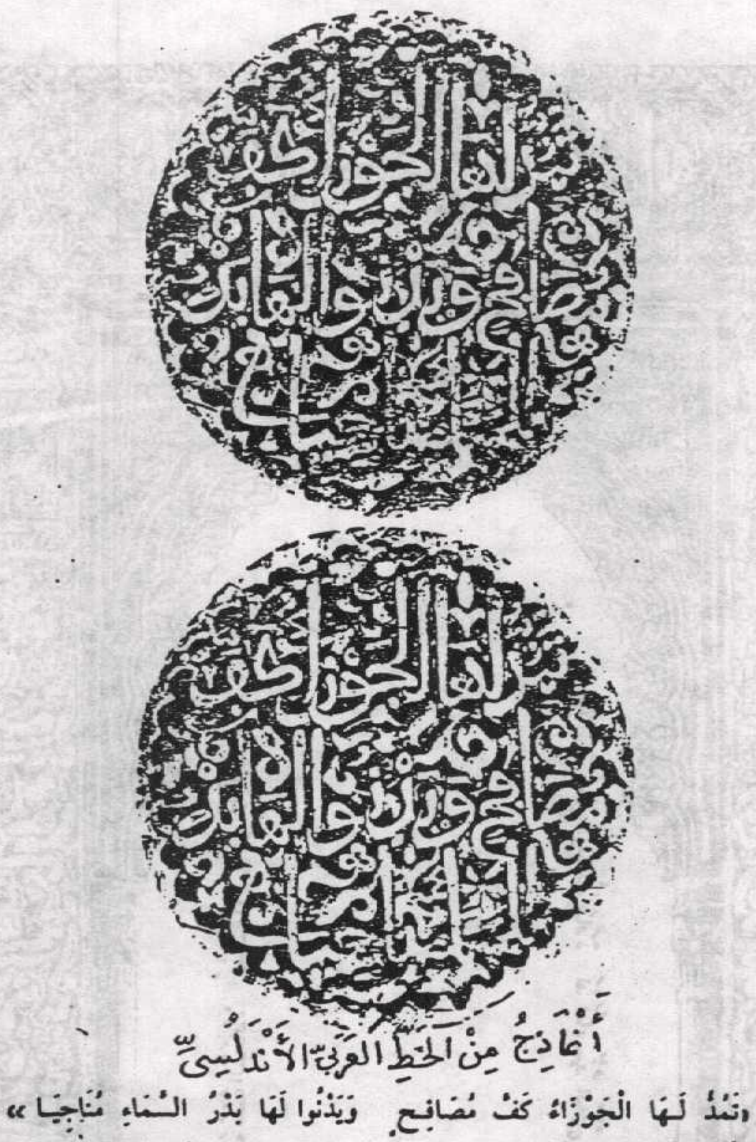


الحمراء . بهو الريحان (بهو البركة) وبرج قمارش



امتزاج فن البناء والزخرفة بفن الشعر في قصر الحمراء

(خمسة أبيات منقوشة حول المشكاة الواقعة على يسار قاعة السفراء)



«تمدّ لها الجوزاء كفّ مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا»

(المقري: «أزهار الرياض..»، ٢ : ٧٢). بيت من شعر (ابن زمرك)

41 - **Poème en Thuluth andalou, sculpté sur un médaillon en stuc de la Salle des Deux - Sœurs du palais royal de l'Alhambra, à Grenade. L'inscription, dont l'auteur est l'illustre poète et homme d'État arabe Ibn Zamrak (mort en 1393), célèbre la beauté de la résidence de l'Alhambra:** ***Les Gémeaux lui tendent une main amicale pour la saluer, la lune céleste attire auprès d'elle une affection murmurée.***

Safadi, Yasin Hamid: «Calligraphie Islamique», (C.I.), Paris, p. 57.

أ نموذجان آخران لامتزاج الخط الأندلسي بالزخارف البديعة



«Alhambra et le Généralife»
Ricardo Villa - Real y
Miguel Sanchez.
Traduction :Fernande et Marie Laffranque - Granada. p. 5.
«Tout Granada», p. 25.

الباب الثالث

الشعر فى العصور الأندلسية

١ ـ حاله وطابعه العام ٠

٢ ـ أهم ملامحه ٠

٣ ـ أسباب ازدهاره ٠

٤ ـ أعلامه ٠

٥ ـ أغراضه ٠

٦ ـ خصائصه الفنية٠

الفصل الأول

١ـ حال الشعر الأندلسى وطابعه العام

أصدق ما توصف به الأمة الأندلسية أنها (أمة شاعرة) إذ كان للشعر عندهم المقام الأول، والمحل الأسنى والمنزلة الرفيعة، والحب الكامل، والشغف البالغ، والرغبة العارمة فى روايته وحفظه والتمثل به، وإنشائه وقرضه . يستوى فى ذلك الرجال والنساء، والخاصة والعامة ، والملوك والسوقة ، العلماء والفقهاء، الفلاسفة والأطباء، القضاة والوزراء . فما ظنك بحاله عندهم؟ إنه الرواج التام، والانتشار الواسع، والارتياح إليه ، والانبساط لسماعه والاقتدار على نظمه، والتكريم لمبدعيه والمطارحة بأبياته، والمباراة بقصائده ومقوطعاته.

مجمل ملامحه الفنية:

١ – غلبة الرقة والسهولة عليه بالقياس لشعر المشارقة.

٢ – صدق تصويره لحياتهم الناعمة، وبيئتهم الجميلة وسائر أحوالهم وأخلاقهم .

٣ – عذوبة موسيقاه، وميلهم للأوزان الخفيفة الرشيقة (كالوافر) و(الرمل) و(السريع) و(الهزج)، وابتكارهم فى موسيقا الشعر (وزنا وقافية) لونا جديدا، سموه (فن التوشيح) أو (الموشحات).

٤ – غلبة بعض الأغراض عليه (كالوصف) و(الغزل) ثم (الاستنجاد) ورثاء الدول الزائلة، وتفوقهم فى الغرضين الأخيرين.

٥ – قصر النفس غالبا فى قصائده إذا قيس بالشعر (المشــرقى) ذى النفس الطويل غالبا.

٦ – تأثره بشعر (المشارقة) فى كثير من المعانى والصور.

٧ – تفوقه على الشعر (المشرقى) [1] فى نظم العلوم، وتقصيره عنــه فى شعر (الزهد والتصوف) وشعر (الحكم والأمثال).

٨ – كثرة (المطارحات) فيه: شفهية ومراسلة.

---

(١) (الأندلس) يمثل مع (مراكش) و(الجزائر) و(تونس) و(ليبيا) (مغرب العـالم الإسلامى)، وأهلوها هم (المغاربة)، وأدبهم هو (الأدب المغربى) ـــ ومـا عداها من (مصر) و(الشام) و(الحجاز) و(العراق) و(فارس) وما بعدها شرقا، تمثل (مشرق العالم الإسلامى) وأهلوها هم (المشارقة) وأدبهـم هـو (الأدب المشرقى).

الفصل الثانى

أسباب ازدهار الشعر فى الأندلس

ازدهر الشعر العربى فى بلاد الأندلس لأسباب كثيرة تتلخص فى:

(توافر الحاسة الفنية، ووجود الموهبة القوية ــ لدى أهل الأندلس ــ ووفرة الدواعى لبعثها وتفجرها) ومن تلك الدواعى:

١ - حبهم الشعر وراثة عن آبائهم وأجدادهم مــن العــرب الخلــص الصرحاء وروايتهم لكثير من جيده ومختاره •

٢ - جمال البيئة الأندلسية، ذلك الجمال الذى يبهر العقول ويســتهوى النفوس ويطلق الألسنة فى وصفه والتغنى بمحاسنه، ذلك الجمال الذى عبر عنه شعراؤهم عندما قال بعضهم[١]:

إنَّ للجنــــــةِ بالأنــــــدلسِ ∴ مُجْتلَى حُسْنٍ ، وريا نفَــسِ[٢]

فسَــنا صُــبْحتها مــن شَــنَبٍ ∴ وَدُجَى ليلتهــا مِــنْ لَعَــس[٣]

وإذا مــا هبــت الــريحُ صَــبًا ∴ صحتُ:واشوقِى إلى الأَندلس[٤]

وعندما قال أيضا :

لله دركــمُ يــا أهــلَ أنــدلسٍ ∴ ماءٌ وظــلٌ وأشــجارٌ وأنهــارُ

---

(١) وهو (ابن خفاجة) وصاف الأندلس•

(٢) المجتلى: المنظر، والريا: طيب الرائحة •

(٣) الصبحة: الصباح، والشنب: بياض الأسنان وبريقها، واللعس: سمرة مستحبة فى الشفة •

(٤) الصبا: ريح طيبة تهب من مشرق الشمس •

ما جنةُ الخلدِ إلا فــى ديــاركمو ∴ ولو تخيرت:هذى كنتُ أختارُ!!
لاتَحْسَبوا بعدها أن تدخلوا (سَقرًا) ∴ فليس تُدْخَلُ بعدَ الجنةِ النــارُ!

وعندما قال (ابن سفر المرينى) :

فى أرض أندلس تُلتــذُّ نعمــاءُ ∴ ولا يفارق فيها القلبَ سراءُ[1]
أنهارُها فضةٌ، والمسْكُ تُرْبتهــا ∴ والخزُّ طينتها، والدرُّ حصباءُ[2]
قد مُيزتْ من جهات الأرض حين بدتْ ∴ فريدةً، وتــولى ميْزَهــا المــاءُ
دارتْ عليها نطاقا أبْحُرٌ خفقــتْ ∴ وَجْدًا بها، إذْ تبدتْ وهى حسناءُ
لذاك يبسمُ فيها الزهرُ مِنْ طرب ∴ والطيرُ يشدو، وللأغصانِ إصغاءُ
فيها خلعتُ عِذارى، ما بها عِــوَضٌ ∴ فهى الرياضُ وكل الأرض صحراءُ!!

٣ – ما نعم به أهل الأندلس من الرغد، وسعة الرزق، وتيسر الفراغ الذى لم يوجد أفضل من الشعر مالئا إياه .

٤ – اهتزاز أمرائهم وخلفائهم وحكامهم لسماع الشــعر، وتشــجيعهم الشعراء بالعطايا القيمة، والمناصب العالية[3].

٥ – قرض معظم حكامهم الشعر ، واعتزازهم به من أمثال الأميــر (عبدالرحمن الداخل) وابنه (هشام) وحفيده (عبدالرحمن الثــانى) والخليفة (المستعين) والخليفة (المستظهر) وهؤلاء كلهــم مــن (بنى أمية)، والحاجب (رئيس الوزراء) (المنصور بن أبى عامر)

---

(١) النعماء: النعمة، والسراء: المسرة والفرح .
(٢) المسك: طيب معروف والخز: الحرير، والدر: اللؤلؤ والحصباء: الحصى .
(٣) حتى كانت الوزارة كأنها مقصورة عليهم فى أغلب عهودهم .

فى دولتهم الشامخة بالأندلس ومن ملوك الطوائف (المعتمد بن عباد) وبنوه (الرشيد) و(المأمون) و(الراضى) ومن ملوك الطوائف أيضا (المعتصم بن صمادح) صاحب (المرية)، و(عمر المتوكل المظفر محمد بن عبدالله) من (بنى الأفطس) أصحاب (بطليوس) وغيرهم، والناس على دين ملوكهم فقلدوهم فى الاهتمام بالشعر والتجمل بقرضه وإنشاده[١].

٦ - تعظيم أغنيائهم للشعر وأهله لدرجة تخصيص (أوقاف) للشعراء، وقد روت كتب الأدب أن رجلا من أهل مدينة (شلب) [٢] الأندلسية وقف أرضا على الشعراء غلتها فى كل سنة مائة دينار ذهبا.

٧ - اعتبار الشعر عند خاصة الناس وعامتهم من علامات الظرف والرقى وسمو المكانة، فأقبلوا عليه بصورة تكاد تكون جماعية ولا أدل على ذلك مما رواه (ياقوت الحموى) فى كتابه (معجم البلدان) عن أهل مدينة (شلب) السابق ذكرها ـ وما حولها من القرى:

"أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا، ولا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه (محراثه) وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه" ومثل ذلك جاء فى كتاب (الروض المعطار فى خبر الأقطار) للشيخ

(١) قرض الشعر: نظمه وإنشاؤه، أما إنشاده: فالقاؤه فى المجامع.
(٢) تقع غربى الأندلس.

(محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميرى) مـــن علمـــاء القـــرن التاسع الهجرى.

٨ - حاجة الأندلسيين للشعر فى المناسبات الخطيرة كالغزو والجهاد، والذود والدفاع ـــ وما أكثر ذلك فى تاريخهم بثا للحماســـة فـــى نفوس الجند، وكالاستنجاد والاستغاثة عندما أحـــيط بهـــم مـــن أعدائهم فى أواخر عهودهم .

٩ - حاجتهم إليه فى (الغناء) الذى شاع وذاع فى معظم عصورهم ، مع براعتهم فى فن (الموسيقا) تَوْءَمِ الشعر، وشـــقيقه المُظْهِـــر لروعته ورونقه.

الفصل الثالث
أعلام الشعر الأندلسى

أنجبت الأندلس العربية الإسلامية العدد الأوفر والجم الأكبر من الشعراء المبدعين الذين يضيق بنا المقام عن حصرهم أو محاولة تعدادهم فهم ألوف مؤلفة موزعون على عصورها الستة الزاهرة، وعلى أقاليمها الجميلة الناضرة ٠

ولكنا سنكتفى بالإشارة إلى أعلامهم ومشاهيرهم الذين وصلتنا دواوينهم، أو انتهت إلينا أخبارهم مع شيء من شعرهم فما أكثر ما ضاع من تلك (الدواوين)، وما أكثر ما فقد من هذه الأخبار للأسباب التى أشرنا إليها من قبل — ويمكن للباحث الحريص أن يتعرف على سائرهم، وعلى المزيد من أحوالهم وأخبارهم بالرجوع إلى المصادر الكبرى للأدب الأندلسى وأغلبها مطبوع متداول بحمد الله[١]٠

وإليك الآن ثبتا موجزا عن مشاهير شعراء الأندلس الذين نوه بهم التاريخ فى سجلاته، وخلدهم الأدب فى أنصع صفحاته، تتخلله ترجمات وافية — بعض الوفاء — لعدد منهم بتوفيق من الله تعالى٠

---

(١) مثل كتاب (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام و(نفح الطيب) لأحمد بن على المقرى و(بغية الملتمس فى تاريخ بلاد الأندلس) لأحمد بن يحيى الضبى، و(المقتبس لابن حيان) و(معجم ابن الأبار) و(المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) لعبدالواحد التميمى) ، وقلائد العقيان (للفتح بن خاقان) (محمد بن عبدالله الإشبيلى) م٥٣٥هـ، و(الإحاطة بأخبار غرناطة) (للسان الدين بن الخطيب) م٧٧٦هـ ، وغيرها ٠

وقد توخينا فى عرض هذا الثبت عن أولئك الشـعراء تـرتيبهم الزمنى بادئين (بعصر الولاة) (فالعصر الأموىّ) وهكذا حتى ننتهى إلى (عصر بنى الأحمر) .

١ - (العصر الأول : عصر الولاة) ومدته أقل من نصف قرن ولم يؤثر عنه شعر كثير ، ولم يعرف عنه شعراء مشـهورون وذلـك ناشئ من قصر مدته أولا: (ستة وأربعون عاما) ومن أثر حفوله بالفتن والاضطرابات ثانيا، ومع ذلك فقد ورد لنا منه فى المراجع شعر قليـل أوله ما نسب إلى (طارق بن زياد) بطل الفتح العربى لبلاد الأندلس من أبيات قيلت فى مناسبة العبور لهذا الغرض الجليل الذى كان له ما بعده وهذه هى :

ركبنا سفينا بالمَجَـازِ مُقَيَّـرا[١] ∴ عسى أنْ يكون الله منا قد اشْتَرَى

نفوسا وأمـوالا وأهـلا بجنـة ∴ إذا ما اشتهينا الشىءَ فيها تَيَسَّرَا

ولسْنا نبالى كيف سالتْ نفوسنا[٢] ∴ إذا نحن أدركْنا الذى كان أَجْدَرَا

اعترض بعض الباحثين على نسبة هذه الأبيات إلى (طارق) كما اعترضوا أيضا على الخطبة المنسوبة إليه والتى سيأتى ذكرهـا فـى النثر إن شاء الله ــ بحجة أن أغلب المؤرخين على أن طارقا (بربرى) الجنس وليس عربيا صريحا فليس له اقتدار على شعر ولا خطابة[٣] ،

---

(١) المجاز : المراد به المضيق، ومقيرا أى مطليا بالقار .
(٢) دماؤنا .
(٣) راجع: الأدب الأندلسى للأستاذ/ حامد مصطفى، والأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور/ أحمد هيكل .

ونحن نميل إلى أن الأبيات (لطارق) فإن هناك روايات ترجع نسبه إلى العرب وتقول إنه من (صدف) وهم بطن من (كندة)، وحينئذ فلا غرابة فى أن يقرض مثل هذه الأبيات[١]، وإن كان غير عربى فإننـــا نـــرجح نشأته مع العرب الخلص وفى مقدمتهم أستاذه (موســـى بـــن نصـــير) اللخمى التابعى[٢] وكم من أعجمى استعرب وسامى العرب الصـــرحاء فى البيان والفصاحة (كبشار) و(أبونواس) و(مهيار)٠

ومن الشعراء الذين ورد ذكرهم فى (مرحلة الولاة) (أبـــوالأجرب جعونة الكلابى) وقيل بل اسمه (جعونة بن الصمة) وكان كما جاء عنه فى (المغرب فى حلى المغرب) [٣] شاعرا هجاء (للصميل بـــن حـــاتم) وزير (يوسف بن عبـــدالرحمن الفهـــرى) آخـــر ولاة الأنـــدلس قبـــل (عبدالرحمن الأموى الداخل) ثم صار (جعونة) مداحا له بعد أن صلح ما بينهما، وكان جعونة عربيا من الطارئين على الأندلس للجهاد واتخذ من أكناف (قرطبة) منزلا ومقاما، وكان فارسا شجاعا يدعى من أجـــل فروسيته وشجاعته (عنترة الأندلسى) تشبيها لـــه بالشـــاعر الجـــاهلى الفارس (عنترة بن شداد العبسى) ، مات جعونة قبيل أن يستتب الأمر (لعبدالرحمن الداخل)، وقد فقد شعره ولم يبق لنا منه إلا هذان البيتـــان (عن ذكريات شبابه) :

---

(١) نفح الطيب جـ٢ صـ١٨١ ٠
(٢) السابق صـ٢٥٣ ، جـ١ صـ١٣١، ١٣٢ ٠
(٣) لابن سعيد المغربى ٠

ولقدْ أرانى مِنْ هــواىَ بمنــزلٍ .:. عالٍ، ورأسى ذو غَدَائِرَ أفْرَعُ(١)
والعيشُ أَغْيَــدُ سَـ ا ـطٌ أفْنانُــهُ .:. والماءُ أَطيبُهُ لنَــا، والمرْتَــعُ

ولابد أنه كان صاحب شعر حماسى كثير يناسب وصفه (بعنتـرة الأندلسى) فضلا عن أهاجيه ثم مدائحه (للصميل بن حاتم) التـى قـال فيها الحميدى صاحب (جذوة المقتبس)[٢] : "وكان قد هجـاه، وهجـا قومه فلما حصل بيده عفا عنه، فنسخ هجوه بمدحه"، أما عـن منزلتـه الشعرية فقد جعله (ابن حزم) ــ فى كتابه عن الشعراء ــ فى مرتبـة سامية ومقدم المقدمين المبرزين حتى ألحقه بكبـار شـعراء العصـر الأموى وذلك إذ يقول : "وإذا ذكرنا (أباالأجرب جعونة بن الصمة) لم نبار به إلا (جريرا) و(الفرزدق) لكونه فى عصرهما، ولـو أنصـف لاستشهد بشعره، فهو جار على أوائل مذاهب العرب، لا على طريـق المحدثين" ، ومنهم (أبوالخطار حسام بن ضرار الكلبى) والى الأنـدلس من قبل (هشام بن عبدالملك) قدمها عام ١٢٥هـ . على أثر اضطراب الأمور فيها اضطرابا شديدا بين العصبيات المختلفة فاسـتطاع تهدئـة الأمور وإيجاد الاستقرار بحسن سياسته ولكن الفتن لم تلبث أن تجددت وانتهت بمقتله بعد خمسة أعوام تقريبا من ولايته، وكـان أبوالخطـار عربيا قحطانيا من زعماء (اليمانية) الذين نصروا الأمويين فى المشرق فى موقعة، (مرج راهط) الحاسمة، ولكن (الأمويين) بعد قليـل مـالوا

---

(١) الفرع: الشعر التام ، و(الأفرع) : غزير الشعر: ضد (الأصلع) ٠
(٢) جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس (لأبى عبدالله الحميدى) المتوفى عـام ٤٨٨هـ ٠

لأعدائهم (القيسية) وآثروهم بالمناصب، فعبر (أبوالخطار) عن استياء قومه (اليمانية) من ذلك وقال مخاطبا خلفاء (بنى أمية) من ذرية (مروان بن الحكم) :

أَفَأْتُمْ بنى مروانَ (قَيْسًا) دماءَنَا ∴ وفى اللهِ -إنْ لم تُنْصِفُوا- حَكَمٌ عَدْلُ
كأنكمو لم تشهدوا (مَرْجَ رَاهِطٍ)(*) ∴ ولم تعلموا مَنْ كان ثَمَّ له الفَضْلُ!!
وَقَيْنَاكُمُو حَرَّ الوغَى بصدورنا ∴ وليستْ لكمْ خيلٌ تُعَدُّ ولا رَجْلُ
فلما رأيتمْ واقدَ الحربِ قدْ خَبَا(١) ∴ وطابَ لكمْ منها المشاربُ والأكْلُ
تغافلتمو عنا كأن لم يكنْ لنا ∴ بلاءٌ(٢) وأنتمْ -ما علمتُ- لها فُعْلُ
فلا تجزعوا إنْ عَضَّتِ الحربُ مرةً ∴ وَزَلَّتْ على المِرْقَاةِ بالقَدَمِ النَّعْلُ(٣)!!

وكان لهذه الأبيات أثرها فى نفس الخليفة (هشام بن عبدالملك)، فعمل على استرضاء (اليمانية) بتعيين شاعرهم (أبى الخطار) واليا على (الأندلس) وكان من أمره هناك ما كان مما ذكرناه، وهذا الشعر قاله (أبوالخطار) قبل قدومه للأندلس فلا نعده شعرا أندلسيا، وإن دل على فحولة شعره وجزالته، ولابد أنه قال شعرا فى أثناء ولايته على (الأندلس) ولكنه مفقود، وقد رويت له أبيات ثلاثة لا ندرى أهى

(*) موضع فى الشام دارت فيه معركة حاسمة بين (اليمانية) أنصار (بنى أمية) وبين (القيسية) أنصار (عبدالله بن الزبير) عام ٦٥هـ وانتصرت فيها (اليمانية) ، واستتب الأمر بعدها (لبنى أمية)٠

(١) خبا : انطفأ ٠

(٢) المراد : جهد كبير ٠

(٣) زلت: زلقت، والمرقاة: السلم، وهى هنا كناية عن السقوط والهزيمة٠

أندلسية أو غير أندلسية؟ وهى التى قالها فى إدراكه ثأر رجل من قومه يسمى (ابن جواس) إدراكا فيه عنف ومغالاة.

فَلَيْتَ (ابنَ جَوَّاسٍ) يُخَبَّرُ أَنَّنِــي ∴ سعيتُ به سعْيَ امرئٍ غيرِ عاقلِ
قتلتُ به (تسعين) تحسب أَنهــمْ ∴ جذوعُ نخيلٍ صُرِّعَتْ فى المَسَايل!
ولوْ كانتْ الموتى تُباع اشتريتُهُ ∴ بِكَفِّى وما اسْتَثْنيْتُ منها أناملى!

وهى أبيات تدل على تهوره واندفاعه، ومجانبته تصرف العقــلاء ــ كما اعترف فى البيت الأول ــ وإلا فكيف يقتل تسعون فــى ثــأر رجل واحد ؟!

ونترك هذه المرحلة (مرحلة حكم الولاة) آسفين لعدم اســتطاعتنا الحكم الصحيح على ما كان فيها من شعر، ومن كان فيها من شعراء، لفقد معظم نتاجها الشعرى وطى أسماء شعرائها الــذين اختفــوا فــى غياهب النسيان ، آملين أن تكشف الأيام عن مخطوطات من التــراث الأندلسى تكشف النقاب عما غاب عنا من ذلك ، وتزيل الضباب عمــا توارى منه واستتر .

٢ ـ الدولة الأموية :

وننتقل إلى (مرحلة الدولة الأموية الأندلسية) بقرونها الــثلاث[١]: (عامة القرن الثانى الهجرى، وكل الثالث والرابع، وربــع الخــامس) لنبشر القارئ الكريم بأنه واجد فيها ما يشبع نهمته، ويروى غلته، مــن خصب عجيب فى الأدب، وازدهار فائق، وانتشار واسع فى الشــعر،

---

(١) من عام ١٣٨هـ إلى عام ٤٢٢هـ .

وأعداد هائلة من الشعراء، حفلت بأسمائهم ونتاجهم المصادر، وفاضت بأشعارهم الدواوين ، وغصت بأخبارهم الكتب والأسفار ، وهانحن أولاء نذكر منهم من نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، متوخين — جهد الطاقة — ذكر السابق قبل اللاحق ، والمتقدم فى مكانه، والمتأخر فى عهده وأوانه، حتى تتضح الصورة كما هى فى الواقع، وتتجلى الحقيقة دون حيف أو تشويه ، ومن غير لبس أو تمويه .

١ – فمن شعراء أول هذه المرحلة (عبدالرحمن بن معاوية) الأموى[١] الأمير (الداخل) والمؤسس الماجد المجدد لدولة بنىأمية فى (الأندلس) بعد أن درست[٢] من المشرق، (صقر قريش)، ورجلها الفذ فى عصره، الذى انتهت إليه إمارة الأندلس عام ١٣٩هـ. والمتوفى عام ١٧٣هـ . بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال وحكم للأندلس دام زهاء ثلث قرن كانت كلها جهادا وإصلاحا.

ومع عبقرية (عبدالرحمن الداخل) السياسية والحربية والإدارية فقد كان أديبا بارعا، وشاعرا رقيقا، وناثرا مجيدا، فمن شعره الأبيات التالية، وقد قالها فىمناسبة عاطفية جياشة هى: أنه ابتنى فى ظاهر (قرطبة) العاصمة دارة[٣] سماها (الرصافة) [٤] — على غرار ما كان

(١) وجده الخليفة الأموى المشرقى (هشام بن عبدالملك بن مروان) .
(٢) زالت .
(٣) قصرا تحيط به الحدائق .
(٤) علم على أماكن كثيرة منها بلدة بالشام، ومحلة ببغداد، وراجع القاموس المحيط للفيروزابادى .

صنع جده (هشام) فى الشام — وجلب إليها الماء ، وغرس فيها النباتات الكثيرة، ولاسيما الشرقية كالرمان وغيره، وغرس فيها أيضا (نخلة) جيء بها إليه من (الشام) (وطنه الأصلى)، فنظر إليها يوما وهى منفردة بين النباتات فى بلاد الأندلس فأثارت فى نفسه الحنين وذكريات الوطن البعيد فقال :

تَبدَّتْ لنا وَسْطَ (الرُّصَافةِ)نَخْلَةٌ ∴ تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النَّخْلِ

فقلتُ شبيهى فى التَّغَرُّبِ والنَّوَى ∴ وطولِ التنائى عن بَنِيَّ وعن أهْلِى!!

نشأْتِ بأرض أنتِ فيها غريبةٌ ∴ فمثلكِ فى الإقْصَاءِ والمنتأَى مِثْلى!!

سَقَتْكِ غوادى المزنِ مِنْ صَوْبِهَا الذى ∴ يَسِحُّ ويسْتَمْرِى السِّماكَيْنِ بالوَبْـلِ!

وهى — كما نرى — أبيات فى غاية من الرقة والعذوبة ، تعبر عن عاطفة مشبوبة، ربط فيها بين غربة النخلة وغربته، وتصور شجونه وألمه الخفى لبعده عن وطنه، فهو إنسان يخفق قلبه بحب وطنه، والشوق إليه، قبل أن يكون ملكا يقتحم المخاطر ويخوض الغمرات لينال عرشا ، ويقيم آخر.

ومن شعره الرقيق كذلك غاية الرقة، الفياض بالأحاسيس والمشاعر النبيلة، ما بعث به إلى (أخته) فى (المشرق)، مسلما ومتشوقا وداعيا:

أَيُّها الراكبُ المُيَمِّمُ أَرْضِى ∴ أَقْرِ مِنْ بَعْضِىَ السلامَ لبعضِى!

إنَّ جسمى كما علمتَ بأرضٍ ∴ وَفؤادى وساكنيه بأرضِ!

قُدِّرَ البيْنُ بيننا فافْترقْنَا ∴ وطوى البينُ عنْ جُفونِىَ غَمْضِى!

قـد قضَــي اللهُ بالبِعــاد علينــا ∴ فعسَى باقْتِرابنَا سوفَ يقْضِــى!

فهو يقرئها السلام ويذكر منزلتها منه فهى جزء من نفسه ويبـين لوعة الفراق بينهما وشدة إحساسه به، فلئن كان جسمه فى (الأنـدلس) فقلبه مع أخته وسائر أهله فى (المشرق) وما ظنك بمن فرق القدر بين جسمه وقلبه فرقة اضطرارية منعته النوم ، وحرمت عليـه الغمـض، آملا فى النهاية أن يجمع الله شمله الشتيت بأهله، وما ذلـك علـى الله بعزيز .

ومن شعره الذى يصور همته وابتعاده عن سفساف الأمور عندما اقترح عليه بعض أصحابه صيد طيور (الغرانيق) التى وقعت قريبا من معسكره فى غزاة له (وهى أبيات من الرجز) وفيها فخر بهذه الهمـة العالية :

دَعْ عنــكَ صَـيْدَ وُقَّــعِ الغَرانِــقِ
فإنَّ هَمِّى فــى اصْـطِيَادِ المَـارِقِ
فى نَفَقٍ قد كـان أو فــى حَـالِقِ
إذا الْتظـتْ هـواجرُ الطَّرائــقِ
كانَ لِفـاعِى[1] ظِـلَّ بَنْـدٍ خَـافِقِ
غَنِيتُ عن روضٍ وقصـرٍ شـاهقِ
بالقفْرِ والإيطــانِ فــى السُّـرَادِقِ

---

(١) اللفاع: ما يغطى به الجسد أو العنق خاصة، ومنه ما نسـميه فـى مصـر (التلفيعة) ، البند : العلم الكبير .

فقلْ لِمَنْ نَامَ علَى النَّمَارِقِ(١)
إنّ العلا شُدَّتْ بِهَمٍّ طَارِقِ
فاركبْ إليها ثَبَجَ(٢) المضَائِقِ
أوْلاَ فأنْتَ أرْذَلُ الخلائِقِ!

ومن شعره الذى رد به على من حاول أن يمن عليه ويغض من جهاده :

لا يُلْفَ مُمْتَنٌّ علينَا قائلٌ ∴ لولاىَ ما مَلَكَ الأنامَ الدَّاخِلُ!
سَعْدى وحزْمى والمُهَنَّدُ والقَنَا ∴ ومقادرٌ بلغتْ،وَحَالٌ حائِلُ
ويقولُ قومٌ: سَعْدُهُ لاَ عقْلُهُ ! ∴ خيرُ السَّعادةِ ما حَمَاهُ العاقلُ!
(أبنىأميةَ) قدْ جَبَرْنَا صَدْعَكُمْ ∴ (بالغربِ)رغْمًا، والسُّعودُ قبائلُ

ومن شعره من هذا القبيل أيضا، وفيه فخر بنضاله الطويل الشاق وفضله على (بنى أمية) فى تجديد ملكهم ولمِّ شعثهم وتأمين خائفهم، وإغناءِ فقيرهم ٠

شَتَّانَ مَنْ قَامَ ذا امتعاضٍ ∴ مُذْ قالَ مَا قالَ واضْمَحلاَّ
وَمَنْ غَدَا مُصْلِتاً لِعَزْمٍ ∴ مُجَرِّداً لِلْعُدَاةِ نصْلاَ
فجابَ قفْرًا ، وشَقَّ بحْرًا ∴ ولمْ يكنْ فى الأنَامِ كَلاَّ
فشَادَ مُلْكًا ، وشَادَ عِزًّا ∴ وَمِنْبَرًا للخطابِ فصْلاَ
وجَنَّدَ الجُنْدَ حينَ أوْدَى ∴ وَمَصَّرَ المِصْرَ حينَ أخْلَى

(١) النمارق: جمع نمرقة: وهى الوسادة الصغيرة يتكأ عليها ٠
(٢) الثبج : وسط الشىء ، ومنه ثبج البحر ٠

ثُـــمَّ دعَـــا أهْلَـــهُ جميعـــًا .·. حيثُ انتـــأوْا: أنْ هلـــمَّ أهـــلا
فجــاءَ هــذا طريـــدَ جـــوعٍ .·. شَـــدِيد رَوْعٍ يخـــافُ قـــتْلا
فنـــالَ أَمْنـــًا، ونـــالَ شِـــبْعاً .·. ونالَ مـــالًا، ونـــالَ أَهْـــلاَ ...

ولولا الظروف الشديدة الصعبة التى مر بها (عبدالرحمن الداخل) منذ وطئت أقدامه أرض الأندلس شابا فى حدود (العشرين) من عمره، واشتغاله بعظائم الأمور من حروب طاحنة وكفاح بطـولى لتأسـيس الملك، وسعى متواصل لتأمين الدولة وإخماد الفتن ، وتوحيـد الـبلاد وتعميرها، وإجالة يد الأصلاح فيها، لوصلنا منه شعر كثير، ولعل فيما أوردناه غنية فى الدلالة على شاعرية صافية، وموهبة طيعة وفصاحة دانية، وبلاغة وافية ٠

٢ - ومن شعراء هذه المرحلة (عاصم بن زيد بن يحيـى) الملقـب بـ(أبىالمخشى) وهو عربى صريح وفد أبوه (زيد) من المشرق إلى (الأندلس) مع جند الشام ونزل بقرية (شوش) مـن أعمـال إقليم (إلبيرة) ونشأ ابنه (عاصم) على قول الشعر واشتهر به[١]، وقد عاصر (عبدالرحمن الداخل) ومدحه وأشاد بانتصاراته كمـا مدح ولده (سليمان)، وقال فيه (الضبى) [٢] فى كتابه "الملـتمس فى تاريخ رجال الأندلس" : "وهو من فحول الشـعراء القـدماء المقدمين، إلا أنه كان هجاء خبيث اللسان جريئا على الأعراض

(١) راجع المغرب فى حلى المغرب ٢/ ١٢٣ ٠
(٢) هو (أحمد بن يحيى) المتوفى عام ٥٩٩هـ ٠

وأدى ذلك إلى محنته على يد الأمير (هشام بن عبدالرحمن الداخل) وولى عهده، فقد قطع (هشام) جزءا من لسان (أبىالمخشى) وسمل عينيه فعاش ما بقى من عمره أعمى، وإن كان لسانه قد برئ بعض البراءة، وامتد به الأجل إلى ولاية (الحكم بن هشام) وقد قال فيما أصابه شعرا كثيرا باكيا نختار منها جزءا من قصيدته (المقصورة) [1] الرائعة صور فيه حزنه وحاله مع (العمى) وحال زوجته التى نكبت بنكبته فقال :

خَضَعَتْ أُمُّ بنـاتِى للعِدا ∴ إذْ قضى اللهُ بأمرٍ فَمَضَى
ورأتْ أعمى ضريرًا إنما ∴ مَشْيُهُ فى الأرْض لَمْسٌ بالعصَا!
فبكتْ وجْدًا ، وقالتْ قولةً ∴ -وهْى حَرَّى-بلغتْ مِنِّى المَدَى
ففؤادى قَرِحٌ مِنْ قَوْلِها ∴ "مَا مِنَ الأَدْوَاءِ دَاءٌ كَالْعَمَى"!
وإذا نالَ الْعَمَى ذا بَصَرٍ ∴ كانَ حَيًّا مثلَ مَيْتٍ قدْ ثَوَى!
وكأنَّ النَّاعِمَ المسْرورَ لمْ ∴ يَكُ مسرورا إذا لاقَى الرَّدَى!
أَبصَرتْ مسْتَبْدِلاً مِن طَرْفِه ∴ قائدًا يسعَى به حيثُ سعَى!
بالعصَا إنْ لمْ يَقُدْهُ قائدٌ ∴ وسؤالِ الناس يَمْشِى إنْ مَشَى!
وَإذَا رَكْبٌ دنَوْا كانَ لهمْ ∴ هَوْجَلًا فى المَهْمَهِ الخَرْقِ الصُّوَى [2]

---

(١) المقصورة : قصيدة حرف رويها (فى القافية) ألف لازمة.

(٢) الهوجل من الإبل: السريع حتى كأن به هوجا، الهوجل من الرجال الأهوج (الأحمق الطائش المتسرع) — والمهمة : المفازة البعيدة والبلد المقفر، والخرق: القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح ، و(الصوى): جمع (صوة) وهى ما غلظ وارتفع من الأرض.

لمْ يزلْ فى كلِّ مَخْشِيِّ السُّرَى .·. يصْطلى الحربَ وَيَجْتابُ الدُّجَى[١]

وهى أبيات تعبر عن حزن عميق، وألم ممض، وعـذاب نفسـى بالغ، أما هو فضرير مشيه غير واثق ولا مستمر، وأما زوجه فذليلـة، خاضعة لعداها وهى أم بنات ولو كان لهن أخ ذكر لهان الخطب وخف المصاب، وهى باكية من شدة الوجد أسيفة ذات مهجة حرى، لم تملـك نفسها أن قالت (قولة) قطعت نياط قلب صاحبها وبلغـت منـه مـدى الأسى والألم : "ما من الأدواء داء كالعمى" !!

إنه حقا أشد الأدواء وأنكاها، إن صاحبه كحى ميت، وإنه كالردى يمحو كل نعيم سابق، ويزيل كل سرور فائت ، حال صاحبه يرثى لها دائما، إن مشى مع قائد فهو تابع مهيض، فإن فقد القائد كان أشد مهانة باعتماده على العصا الصماء، وسؤاله الناس كيف الطريق!!، أمـا إذا كان على سفر مع قوم: فهو يشعر بأنه كل عليهم وبلاء لبطئه وتعثره، عالمه ظلام دائم كصاحب السفر فى الليل تحيط به المخاوف والأهوال من كل جانب!

ولا نحسب أن أحدا بلغ فى تصوير عاهـة (العمـى) ومصـيبة صاحبها بها وشدة وقعها عليه ـ لاسيما وقد طرأت عليه بعد إبصـار ـ، ما بلغ هذا الشاعر المرهف الإحساس ـ رحم الله (عاصم بن زيد أبا المخشى) لقد أخذ درسا قاسيا من اندفاعه فى (الهجاء)، وخوضه فى أعراض الناس، ولعله لم ينطق فيه بعد ذلك بحرف !!

---

(١) (اجتاب) الأرض والبلاد: قطعها سيرا، والدجى : سواد الليل وظلمته.

٣ - ومن شعراء هذه المرحلة (الحَكَمُ بنُ هِشام) الملقبُ (بالرَّبَضِيِّ) وهو ثالث أمير أموى للأندلس بعد أبيه (هشام) وجده (عبدالرحمن الداخل) وقد ذكر المؤرخون أنه كان أفحل (بنى أمية) بالأندلس، وأشدهم إقداما وصرامة وأنفة وأبهة وعزة، مع وجود الضبط وحسن السياسة وإيثار النصفة، وكان يشبه (بالمنصور العباسى) فى الشدة وضبط الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة وقال عنه النقاد : "كان خطيبا مفوها أديبا شاعرا"[(١)] وإنما لقب بالربضى لإيقاعه بأهل "الرَّبَض" ــ وهو حى شعبى كبير فى ضواحى (قرطبة) وكان أهل هذا الحى قد ثاروا على (الحكم) ثورة عنيفة هددته بالسقوط والقتل وحاصروه فى قصره وقامت الحرب بينهم وبين جنوده، لكنه انتصر عليهم ونكل بهم وأجلاهم عن (الأندلس) وهدم بيوتهم وأزالها وزرع مكانها[(٢)] وقد توفى (الحكم) عام ٢٠٦هـ، ومن شعره الذى قاله بعد موقعة (الربض) :

رَأَبْتُ صُدُوعَ الأَرْضِ بالسيفِ رَاقِعًا .:. وَقِدْمًا لأَمْتُ الشَّعْبَ مُذْ كنتُ يافِعًا[(٣)]

فسائِلْ ثُغُورِى هلْ بها اليوم ثُغْـرَةٌ .:. أُبادِرُها مُسْتَنْضِيَ السيفِ دارِعًا[(٤)]

وشَافِهْ على الأرض الفضاءِ جماجمًا .:. كأقحافِ شِرْيَانِ الهَبِيدِ لوامعا[(٥)]

---

(١) المغرب ١/ ٣٩ ، ٤٤ .
(٢) راجع: المجمل فى تاريخ الأندلس للعبادى.
(٣) رأب الصدع : أصلح الفاسد وكذلك لأم الشعب، واليافع: الشاب.
(٤) انتضى السيف: سله، والدارع : لابس الدرع .
(٥) الهبيد: الحنظل، وأقحافه: ثماره المستديرة شبه بها رءوس القتلى .

تُنَبِّيكَ أَنِّى لمْ أكنْ فــى قِــراعِهِمْ ∴ بِوانٍ،وأَنِّى كنتُ بالسيْفِ قَارِعَا
وأنى إذا حادوا سِراعا عن الرَّدَى ∴ فماكنتُ ذاحَيْدٍعن الموت جازعا
حميتُ ذِمارى فاستبحْتُ ذِمَــارَهُمْ ∴ ومَنْ لايحامىظَلَّخَزْيانَ ضارعا[1]
ولمَّا تســاقَيْنا نِهَــالَ حُروبِنــا ∴ سَقَيْتُهُمُو سَجْلاًمِنَ الموْتِ ناقعا[2]
وهل زِدتُ أنْ وفيتُهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ ∴ فَوَافَوْا مَنَايا قُدِّرَتْ ومصارعا؟!

وهو شعر جيد ، يدل على عارضة قوية، ويشــف عــن متانــة وجزالة، ويجرى على طبع موات، وروح أبية متوثبة وإن كنــا نأخــذ عليه قسوته ومبالغته فى الشدة والعنف٠

٤ – ومنهم (يحيى بن حَكَم البكرىّ) الملقب (بالغَزَال) لجمالِه، المتوفى حوالى عام ٢٥٠هـ[3]، قال عنه صاحب المغرب "شاعر أديب حكيم أرسله الأمير (عبدالرحمن الأوسط) فى سفارة إلى (قيصر الروم) فى (القسطنطينية) فوفق فى سفارته أيما توفيق" ٠

وكان قد تعرض هناك لبعض الإغراءات فصمد ولم يستجب لهــا وقال فى ذلك شعرا منه هذه الأبيات:

وَأَغْيَدَ لَيِّنِ الأعْطــافِ رَخْــصٍ ∴ كحيلِ الطَّرْفِ ذِى جِيدٍ طَوِيــلِ
تَرَى مــاءَ الشــبابِ بوجْنتيْــهِ ∴ يلوحُ كرونقِ السَّيْفِ الصَّــقِيلِ
يَحِــنُّ إلــىَّ مُطَّرِفًــا لِشَــكْلى ∴ وَيُكْثِرُ لى الزيارةَ فى الأَصــيلِ

(١) الذمار: ما ينبغى حمايته كالعرض والمال ٠
(٢) النهال: الشرب الأول للماء ونحوه وفى إسناده للحروب استعارة، و(السجل) : الدلو الكبيرة ٠
(٣) راجع نفح الطيب ٢/ ٢٤٤ ٠

أتـــى يومــًا إلـــىَّ بـِـزِقِّ خَمْــرٍ ∴ شَمُولِ الريح كالمسْـــكِ الفَتِيــلِ
لِيشْربَهَا معى، وَيبيــتَ عِنْـدى ∴ فيثبــت بيننــا وُدُّ الخَليــلِ
فقلــتُ تعفُّفــًا منــِّى وتقْــوى ∴ فَدَيْتُكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الشَّمُولِ(١)!

وشعره كما نرى عذب مطبوع، ينبئ عن رقة حاشية، وسلاسة لفظ، وجمال وصف، وسهولة معنى. والغزال عربى صميم ذو حسب عريق ويرجع نسبه إلى قبيلة (بكر بن وائل) وكان لا يتكسب بشعره، بل يعبر به عن نفسه، وحياته من غير تكلف، وكان جميل الطلعة، حسن الهيئة، حاضر البديهة فلا عجب أن يجيء شعره صورة من نفسه، ودالا على شخصيته .

٥ - ومن الشاعرات فى هذه المرحلة (حَسَّانَةُ التَّميمية) (بنت أبىالحسين) وكان أبوها شاعرا من أهل (إلبيرة)، وقد تأدبت عليه ولما مات وتغيرت أحوالها بعد موته لجأت إلى (الحكم الربضى) أمير الأندلس لينصفها فقضى حوائجها وأوصى بها عامله على (إلبيرة)، ومن شعرها عندما وفدت على (الحكم) :

إنِّى إليكَ (أَبَا العاصــى) مُوَجِّعَــةً ∴ (أباالحسين) سَقَتْه الوَاكِفَ الدِّيَمُ(٢)
قد كنتُ أرتعُ فى نُعْماهُ عاكفــةً ∴ فاليومَ آوِى إلى نُعْمَاكَ يا(حَكَمُ)
أنتَ الإمامُ الذى انقادَ الأنامُ لَــهُ ∴ وَمَلَّكَتْهُ مقاليدَ الــوَرَى الأُمَــمُ

---

(١) الشمول : الخمر .
(٢) أى سقت قبره ، والواكف: السائل، والمراد به المطر، والديم جمع (ديمة) وهى السحابة، والعرب تدعو للقبور وأصحابها بالسقيا .

لاشَىْءَ أَخْشَى إذا ما كُنْتَ لى كنفاً ∴ آوِى إليْهِ، ولا يَعْرُونِىَ(١) العَدَمُ
لازِلْتَ بالعِزَّةِ القَعْسَاءِ(٢) مُرْتديا ∴ حتى تَذِلَّ إليكَ العُرْبُ والْعَجَمُ

٦ – ومن شعراء القرن (الرابع الهجرى) (ابن عبد ربـــه) صـــاحب الكتاب الفريد (العقد الفريد) وهو (أبوعمر بن شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدربه القرطبى) نشـــأ فـــى (قرطبـــة) حاضـــرة الأندلسى لعهد (بنى أمية) وعاصر أربعة من أمـــرائهم أولهـــم (محمد بن عبدالرحمن الأوسط) وآخرهم (عبدالرحمن الناصـــر) وله فيهم مدائح جميلة، وله فى (الناصر) الأرجوزة المشـــهورة التى خلد فيها أعماله ومغازيه ، وقد جد فى الدرس وتحصـــيل العلوم منذ شبابه الباكر، حتى عد من الفقهاء، وكان له فى الأدب منزلة رفيعة ومؤلفات بديعة وحسبنا منها كتابه الخالـــد (العقـــد الفريد) المعدود من أمهات كتب الأدب وله ديوان شعر مفقود ، وقد عاش عمرا طويلا وتوفى (بقرطبة) عام ٢٣٨هـــ ومـــن شعره فى المدح قوله :

كريمٌ على العَلَّاتِ(*) جَزْلٌ عطاؤهُ ∴ مُنيلٌ وإنْ لَـمْ يُعْتَمَـدْ بِنَـوالِ
وما الجودُ مَنْ يعطِى إذا ما سألْتَهُ ∴ ولكنَّ مَنْ يُعْطِى بِغَيْـرِ سُـؤَالِ

---

(١) لا يعرونى العدم : لا يغشانى الفقر .
(٢) على العلات : أى على كل حال.
(*) الأقعس: الرجل المنيع، والثابت من العز، والقعساء: تأنيث الأقعس، وهـــى العزة المكينة الثابتة .

وقال يصف سيفا:

وَذِى شُطَبٍ تَقْضِى المَنَايا بِحُكْمِهِ ∴ وليس لِمَا تقضِى المنيةُ دافعُ[١]
فِرِنْدٌ إذا ما اعْتَنَّ للعيْن راكدٌ ∴ وبرقٌ إذا ما اهتزَّ بالكَفِّ لامِع[٢]
يُسَلِّلُ أرْوَاحَ الكُمَاةِ انْسِلَالُهُ ∴ ويَرْتاعُ منه الموتُ والموتُ رائعُ[٣]
إذا ما التقتْ أمثالُهُ فى وَقيعةٍ ∴ هنالكَ ظَنُّ النفسِ بالنَّفْسِ وَاقعُ

ويمتاز شعره بالجزالة ومتانة النسج .

٧ - ومنهم (ابن هانئ) وهو (أبوالقاسم محمد بن هانئ الأندلسى) ولد (بإشبيلية)، ونشأ بها وتأثر ببيئتها الأدبية، فقال الشعر ونبغ فيه، ولازم أمير إشبيلية فمدحه بمدائح تغالى فيها، حتى اتهمه الناس فى دينه، وهموا به وبالأمير فغادر الأندلس إلى (المغرب) واتصل (بالمعز لدين الله الفاطمى) ومدحه، فأعجب به، واصطفاه شاعرا له ، ولما غزا المعز (مصر) وانتقل إليها لحق به (ابن هانئ) ونزل فى طريقه (ببرقة) وسكر فى دار أحد أصحابه، فعربدوا عليه وقتلوه عام ٣٦٢هـ . وهو دون الأربعين، وحزن عليه (المعز) وقال "كنا نريد أن نفاخر به شعراء (المشرق) ، فلم يُقَدَّرْ لنا: (وابن هانئ) مشهور بمدائحه الفخمة ومبالغاته الشديدة الخارجة عن الحد كقوله فى بعض ممدوحيه :

---

(١) الشطب : الحزوز فى جانب السيف طولا .
(٢) والفرند: المراد به هنا: حديدته وصفحته ، اعتن: ظهر .
(٣) رائع : من الروع وهو الخوف.

هو عِلّةُ الدنيا، وَمَنْ خُلقتْ لَـهُ .:. وَلِعِلّـةٍ مّـا كانـت الأَشْـياءُ
ليستْ سماءُ اللهِ مَـا تَرَوْنَّهـا! .:. لكنَّ أَرضًا تحْتويـهِ سَـمَاءُ !

ومن شعره فى مدح (المعز) الذى نحا فيه هذا النحو الشاذ:

مَا شِئْتَ لا ما شَـاءَتْ الأَقْـدارُ .:. فاحْكمْ فأنتَ الواحِـدُ القَهّـارُ!

وهو وصاف ماهر مجيد، طويل النفس فى المدح والوصف على السواء. ومما وصف به (أسطول المعز لدين الله الفـاطمى) القصـيدة الرائعة التى مطلعها:

أماوالجوارى المُنْشآت التىسَرتْ .:. لقدْ ظاهرتهـا عُـدّة وعِديـدُ
قِبَابٌ كماتُزْجَى القِبابُ على المَهَا .:. ولكنَّ مَنْ ضَمَّتْ عليه أُسُودُ(١)

ومنها :

مِنَ الرّاسياتِ الشُّمِّ-لوْلا انْتِقَالُها- .:. فمنْها قِنَانٌ شُـمَّخٌ وَرُيـُودُ(٢)
مِن الطيـرِ إلاَّ أنهـنَّ جَـوَارِحُ .:. فليسَ لها إلاَّ النفوسَ مَصِـيدُ
مِن القادحاتِ النارَ تُضْرَمُ لِلصِّلَى .:. فليسَ لها يومَ اللقـاءِ خُمُـودُ
إذا زَفَرَتْ غيظا ترامتْ بِمَـارِجٍ .:. كَمَاشَبَّ مِنْ نَارِ الجحيمِ وَقُودُ(٣)
فَأَفْوَاهُهُنَّ الحاميـاتُ صَـواعِقٌ .:. وَأَنفاسُهُنَّ الزافـراتُ حَديـدُ..

---

(١) شبه السفن بالقباب التى تضرب على النساء اللاتى يشبهن بقر الوحش.
(٢) القنان : جمع قنة وهى ذروة الجبل ، والريود : جمع ريد وهو القطعة مـن الجبل.
(٣) المارج: نار صافية من الدخان.

ومن أغراض شعره (الغزل) و(الرثاء) وقدافتن فيهما كما افتن في كل ما تناوله من أغراض الشعر، وأسلوبه جزل محكم فيه قوة وقعقعة في الموضوعات الجليلة كوصف الجيوش والأساطيل وتصويره بديع، ومعانيه واضحة ممتعة.

٨ - ومن شعراء القرن الرابع (وأدرك الخامس) الشاعر المفلق المشهور (ابن دراج) وهو (أبوعمر بن محمد بن دراج القسطلي) قال عنه صاحب (المغرب) إنه (متنبيّ الأندلس) وهذا الوصف سبق إليه (الثعالبي) في (اليتيمة) حين روى الكثير من شعره فيها وقال عنه:

"هو بالصقْع الأندلسيّ (كالمتنبِّي) بصقْع الشام" وهو في رأْيِه أحدُ الفحول في الشعر العربي كله، وقد أشاد بذكره مؤرخو الأدب والنقاد وعلى رأسهم (ابن بسام) صاحب (الذخيرة)، ونبهوا على مكانته، ورفعوا قدره، وله أمداح كثيرة في (المنصور بن أبي‌عامر) الذي استبد بحكم الأندلس أواخر عهد (بني‌أمية) بيد أنه كان مجاهدا كبيرا ومصلحا عبقريا، و(ابن دراج) منسوب إلى (قسطلة) [1] وهي مدينة من أعمال إقليم (جيان)، وكانت وفاته عام ٤٢١هـ . وقد تصرف في فنون الشعر وأغراضه فكان من المبدعين المتألقين وقد أورد له (أبومنصور الثعالبي) في كتابه (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) أكثر من عشر قصائد في مدح (المنصور) [2] كلها رائع ومنها :

---

(١) بلد في شمال وسط الأندلس .

(٢) اليتيمة جـ٢ من ص١٠٣ إلى ص١١٧ ط حجازي بالقاهرة .

مَا كفرُ نُعماكَ مِن شأنى فيثْنِينى .·. عَمَّنْ توالى لِنَصْرِ الملْكِ والدينِ

ولا ثنائى وشكرى بالوفاءِ بمـــا .·. أَوْليتنى دونَ بذلِ النفس يَكْفينى

حق على النفس أن تبلى،ولو فنيتْ .·. فى شكرِ أيسرِ ما أضْحَيْتَ تُولِينى

ها إِنها نعمةٌ مـــا زال كوكبهـــا .·. إليكَ فى ظلماتِ الخَطْبِ يَهْدِينى

تَنأى بجوْهرِ وُدٍّ غيـــرِ مُبْتَـــذَلٍ .·. عندى وجوهَرِ حَمْدٍ غيرِ مَكْنُونِ

وَحَبَّذا النَّأْىُ عَنْ أهلِى وعَنْ وطنِـــى .·. فى كلِّ بَرٍّ وبحْرٍ منك يُـــدْنِينى

وموْقِفٍ للنَّدَى أَغْلَيْتُ مُتَّـــادِى .·. فيهِ،وَأَرْخَصْتُ دمْعَ الأَعْيُنِ الْعِينِ

مِن كل نافرةٍ ذَلَّتْ لِقَـــوْدِ يَـــدِى .·. فِى ثَنْىِ مَا يَدُكَ العَلْياءُ تَحْبُونى

والحَذْرُ يَخْفِق فى أحشاءِ وَالهةٍ .·. تُرَدِّدُ الشَّجْوَ فى أَحْشَاءِ مَحْزُونِ

أُجاهِدُ الصبرَ عنها وهى غافلـــةٌ .·. عنْ لوْعَةٍ فى الحَشَا منْها تُنَاجِينى

يَا هذِهِ كَيْفَ أُعْطِى الشوقَ طاعتَهُ .·. وهذه طاعةُ(المنصورِ)تَدْعُونى

شُدِّى علَىَّ نِجادَ السَّيْفِ أَجْعَلُـــهُ .·. ضجيعَ جَنْبٍ نَبَا عنْ مضْجَعِ الهُونِ

رَضِيتُ منها وَشِيكَ الشَّوْقِ لى عِوَضًا .·. وقلتُ فيها لِلَوْعَاتِ الأَسَى بِينِـــى

فَإِنْ تَشُجَّ تباريحُ الهوى كبـــدى .·. فقد تعودتُ قُرْبًا منك يأسُـــونى

وإِنْ يُمِتْ مَوْقِفُ التوديعِ مُصْطَبَرِى .·. فَأَحْرِ لى بِدُنُوٍّ منـــكَ يُحْيِينـــى

وَأَىُّ ظِلٍّ سوى نُعماكَ يَلْحقُنِـــى؟ .·. أَوْ وِرْدِ ماءٍ سوى جَدْوَاكَ يَرْوِينِى؟

وَحَاشَ للخيلِ أَنْ تُزْهَى علَىَّ بِهَـــا .·. والبِيضِ والسُّمْرِ أَنْ تحظَى بِهَادُونى

وربَّما كنتُ أَمْضَى فى مكارِهِهَـــا .·. قِدْماً وَأَثْبَتُ فِى أَهْوالِها الجُونِ

مِن كل أبيضَ(*) ماضى الغَرْب ذى شُطَبٍ .:. وكلّ لَدْنٍ طَريــرِ الحَــدِّ مَسْــنُونِ
كذاكَ شأوى مُفَدًّى فى رِضَاكَ إذا .:. سَعَيْتُ فيه فلا سَاعٍ يُبَارِينى..الخ

وهذه رائعة أخرى من تلكم الروائع فى مدح (المنصور) وإشادته بجهاده[1]:

لكَ اللهُ بالنصــرِ العزيــزِ كفيــلُ .:. أجَــدَّ مَقَــامٌ أمْ أجَــدَّ رَحِيــلُ
هو الفتحُ أمَّــا يومُــهُ فَمُعَجَّــلٌ .:. إليــكَ وأمَّــا صُــنْعُهُ فَجَزِيــلُ
وآياتُ نصرٍ ما تزالُ ولــمْ تَــزَلْ .:. بهنَّ عَمَاياتُ الضــلالِ تــزول
سيوفٌ تنيرُ الحقَّ أنَّى انتضيتَها .:. وخيلٌ يجولُ النصرُ حيثُ تَجُولُ
ألا فى سبيلِ اللهِ غَزْوُكَ مَنْ غَوَى .:. وَضَلَّ بِهِ فى النَّــاكثين سَــبِيلُ
لَئِنْ صَدِئَتْ ألبابُ قوم بمكْــرِهمْ .:. فسيفُ الهدى فى راحتيكَ صَقِيلُ
فإنْ يَحْىَ فيهمْ مَكْرُ (جالوتَ) جَدِّهِمْ .:. فأحْجارُ (داودٍ) لــديكَ مُثُــولُ
خفيفٌ على ظهرِ الجوادِ إذا عَدَا .:. ولكنْ على صدرِ الكَمِىِّ ثقيــلُ
وجرداءَ لمْ تبخل يَــدَاها بِغايَــةٍ .:. وَلا كَرُّهَا نحوَ الطِّعــانِ بَخِيــلُ
لها مِنْ خوافى لَقْوَةِ الْجَوِّ أربــعٌ .:. وَكَشْحَانِ مِنْ ظَبْىِ الفَلَاوتَلِيلُ(**)
وَبيضٍ[2] تركْنَ الشِّرْكَ فى كلِّ مُنْتَأًى .:. فُلُولاً، وما أزْرَى بِهــنَّ فُلُــولُ
تَموتُ دِمَاءُ الكُفرِ فِى شَــفَرَاتِها .:. وَيَرْجِعُ عنْها الطَّرْفُ وَهْوَ كَلِيلُ

(*) أى سيف، وذى شطب: أى طرائق تكون فى منيه .
(١) المصدر السابق ٢/ ١١٠، ١١١ .
(**) التليل : العنق .
(٢) سيوف .

وَأَسْمَرَ(١) ظَمْآنِ الكُعُوبِ كَأَنَّمَا .·. بِهِنَّ إلى شُرْبِ الدماءِ غَلِيلُ!!
إذا ما هوى للطعنِ أيقنتَ أنه .·. لِصَرْفِ الرَّدَى نَحْوَ النفوسِ رَسُولُ
وَحَنَّانَةِ الأَوْتارِ(٢) فى كلِّ مُهْجَةٍ .·. تُعاطِيكَ أوتارٌ لَهَا وَذُحُولُ!
إذا نَبْعُهَا عنها أَرَنَّ فَإِنَّمَا .·. صَدَاهُ نحيبٌ فى العِدا وَعَوِيلُ
كتائبُ عَزَّ النصرُ فى جنباتها .·. وَكُلُّ عَزِيزٍ يَمَّمَتْهُ ذليلُ
يسيرُ بها فى البرِّ والبحرِ قائدٌ .·. يَسِيرٌ عليهِ الخَطْبُ وهْوَ جليلُ
جَوَادٌ له مِن بَهْجَةِ العِزِّ غُرَّةٌ .·. وَمِنْ شِيَمِ الفَضْلِ المبينِ حُجُولُ
بِهِ أَمِنَ الإسلامُ شرْقًا ومغربًا .·. وغالتْ غَوَايَاتِ الضَّلالَةِ غُولُ
حُسامٌ لِداءِ المكرِ والغَدْرِ حاسِمٌ .·. وَظِلٌّ على الدينِ الحنيفِ ظَليلُ

التعليق :

ولا نطيل عليك بتحليل النصين فربما أتاك ذلك فى موضع آخر بإذن الله وحسبنا الآن أن نشير إلى أن (ابن دراج) قد مزج المدح بالوصف مزجا بديعا، فهو يصف الخيل والسيوف والرماح والقسى ويصف الكتائب، ويصف انفلاته من بين أسرته ومن يد زوجته الباكية لينضم إلى ركب المجاهدين فى جيش (المنصور)، وهو يذكرنا فى نسجه المتين ومعانيه المتعانقة بنسج (المتنبى) وقصائده (السيفيات) التى خلد بها جهاد (سيف الدولة الحمدانى) ووقائعه المجيدة مع (الروم) وفى هاتين القصيدتين تلمح مع الإبداع والإحكام (الاستقصاء فى

(١) رمح .
(٢) القوس .

الوصف) مع (طول النفس)، (أى طول القصيدة وكثرة عدد أبياتها) مع الجودة والاستواء فيها بين أولها وآخرها ، وهذا هو الغالب فى أمداحه وقد يأتى بالمقطوعة القصيرة الرائعة، ويمزج فيها أيضا بين المدح والوصف كما فى قوله فى وصف زهر (السوسن) ومدح (عبدالله الحاجب) فى عذوبة منقطعة النظير:

إِنْ كانَ وجْهُ الربيعِ مبتسمًا .:. فالسَّوْسَنُ المُجْتَلَى ثنايَاهُ!

يَا حُسْنَهُ بينَ ضاحكٍ عَبِقٍ .:. بِطيبِ رِيحِ الحبيبِ رَيَّاهُ!

يَا حاجبًا مُذْ بَرَاهُ خالِقُهُ .:. تَوَّجَهُ بالعُلاَ وَحَلاَّهُ!

إِذا رآهُ الزمانُ مُبْتهِجًا .:. فقدْ رأَى كُلَّ مَا تَمَنَّاهُ!

وَإِنْ رَآهُ الْهِلاَلُ مُطَّلِعًا .:. يقُولُ: رَبِّى وَرَبُّكَ اللهُ!

٩ - ومن معاصرى ابن دراج الشاعر المجيد (ابن شهيد) وهو (أبوعامر أحمد بن عبدالملك بن أحمد بن عبدالملك بن عمر بن محمد ابن عيسى بن شهيد) من بيت عريق فى العلم والأدب، وهو ــ كما يقول صاحب المغرب ــ أعظم هذا البيت شهرة فى البلاغة وقد أثنى عليه (ابن بسام) فى (الذخيرة) ثناء مستطابا وكذلك فعل مؤرخو الأدب الأندلسى ونقاده، وكان يلم بالمعنى ويبلغ منه ما يريد فى القليل من الأبيات، ومع ذلك فله قدرة على الإطالة متى أراد مع الجودة الفائقة وكان مجيدا فى النثر إجادته فى الشعر وله فى النثر الأثر الخالد (رسالة ــ التوابع والزوابع) وهى قصة خيالية طريفة تشبه من بعض الوجوه (رسالة الغفران) لأبىالعلاء المعرى) وقد (بنى ابن شهيد) هذه

الرسالة القصصية على مخاطبات (الجن) وأجرى معهم محاورات بث فيها آراءه فى كثير من قضايا اللغة والأدب، وسيأتيك المزيد عن هذه الرسالة فى الحديث عن النثر إن شاء الله تعالى .

ولتقدم ابن شهيد فى الأدب والعلم والفضل استوزره الخليفة الأموى (عبدالرحمن الخامس) الملقب بالمستظهر، ولكن الخلافة الأموية كانت فى أواخر أيامها، والفتن فى أوج اشتدادها، فلم تدم وزارته إلا أسابيع، كما كان ذا حظوة وتقدم عند (يحيى بن حمود العلوى) الذى حكم (قرطبة) مدة، ثم اضطر إلى مغادرتها إلى (مالقة) [*] مركزه الأول وقد دعا (ابن شهيد) للإقامة معه فيها — إلا أن ابن شهيد عاد بعد قليل إلى (قرطبة) التى يحبها، ولا يصبر على فراقها ، وظل بها بعيدا عن الفتن والمناصب حتى وافته منيته عام ٤٢٦هـ فحزن عليه أهل قرطبة حزنا بالغا وبكوا على قبره كثيرا ورثاه شعراؤهم أحر رثاء وممن رثاه الشاعر (ابن برد الأصغر) [١] ومن شعر ابن شهيد فى السفر والمخاطرة قوله:

وَمَرْقَبَةٍ[٢] لا يدركُ الطرفُ رَأْسَهَا ∴ تَزِلُّ بها رِيحُ الصَّبَا فَتَحَدَّرُ

تَكَلَّفْتُهَا والليلُ قَدْ مَاجَ بَحْرُهُ ∴ وقد جعلَتْ أَمواجُهُ تَتَكَسَّرُ

وَمِنْ تَحْتِ حِضْنِى مِنْ ظُبَا الهِنْدِ أَبْيَضٌ[٣] ∴ وَفِى الكَفِّ مِنْ عَسَّالَةِ الخِطِّ أَسْمَرُ[٤]

(*) بلدة فى جنوب الأندلس .

(١) راجع (المغرب) جـ١ صـ٨٥ تحقيق د/ شوقى ضيف .

(٢) المرقبة: أعلى الجبل وهى ذروة وقمة وقنة .

(٣) أبيض: سيف .

(٤) أسمر: رمح.

هما صَاحِباىَ مِنْ لَدُنْ كنتُ يافعاً ∴ مُقِيلانِ مِنْ جَدِّ الفتى حين يَعْثُرُ
فذا: جدولٌ فى الغِمْدِ تُسْقَى به المُنَى ∴ وذا: غُصُنٌ فى الكفِّ يُجْنَى فيَثْمِرُ!!

وفى هذه الأبيات وصف بديع للمرقبة "الذروة"، التى صعد إليها الشاعر ومناعتها، والليل المائج بظلماته، ولسلاحه من سيف لماع ورمح لدن، مع وصف اعتداده بصحبة السيف والرمح، وبيان مزاياهما، فى تصوير رائع جميل٠

ومن شعره فى (الحياة والموت) :

أَفى كلِّ يوم مصرعٌ لعظيم؟! ∴ أَصابَ المنَايا حَادِثى وَقَديمى!
وكيفَ اهْتدائِى فى الخُطُوبِ إذا دَجَتْ ∴ وقدْ فَقَدَتْ عَيْنَاىَ ضوءَ نُجُومِ؟!

ولا يخفى دور الاستفهام فى البيتين وما يفيده من الشكوى والحيرة والإذعان لجبروت الموت وسطوة المصائب وعَمايتها٠

ومن شعره فى لحظات (انتهاء الليل وإقبال النهار) :

وَكَأنَّ النجومَ فِى اللَّيْلِ جَيْشٌ ∴ دَخلُوا لِلْكَمِين فِى جَوْفِ غَابِ!
وكأَن الصَّباحَ قَانِصٌ طَيْرٍ ∴ قَبَضَتْ كفُّهُ برجْلِ غُرَابِ!

وليس يغيب ما فى البيتين من تصوير جميل وخيال لطيف٠

ومن قوله فى العلة التى مات فيها:

تَأَمّلْتُ ما أَفْنَيْتُ مِنْ طُولِ مُدَّتى ∴ فلَمْ أرَهُ إلّا كَلَمْحَةِ نَاظِرِ
وَحَصَّلتُ ما أَدْرَكْتُ من طول لَذَّتى ∴ فَلَمْ أُلْفِهِ إلّا كصَفْقَةِ خَاسِرِ

وما أنا إلَّا أهْلُ ما قَـدَّمَتْ يَـدِى ∴ إذا خَلَّفُونى بين أهـلِ المقـابِرِ
سقى اللهُ فِتْيانا كـأنَّ وُجُـوهَهُمْ ∴ وُجُوهُ مصابيحِ النجومِ الزَّواهِرِ
يقولون:قد أَوْدَى(أبوعامرٍ) العُلاَ ∴ أَقِلُّوا،فَقَدْ مًا مَاتَ آبَاءُ عَـامِرِ
هوالموتُ لمْ يُحْرَسْ بِأَسْجاعِ خَاطِـبٍ ∴ بليغٍ، ولمْ يُعْطَفْ بأنفاسِ شَـاعِرِ

التعليق :

وفى الأبيات عظة بالغة، وعبرة صادقة، وحقائق دامغة، فى موقف لا مجال فيه لخيالٍ جامح، أو تَزَيُّدٍ هائم . ولا يناسب فيه إلا تقرير الواقع، وصوغ الحكمة النافعة ، التى تتجلى فى البيت الأخير كأروع ما تكون الحكمة، وأبلغ ما يكون المثل.

(ابن زيدون) [*] :

١٠ – ومن شعراء (القرن الخامس الهجرى) وأدبائه العمالقة النابهين المجودين: (ابن زيدون) وهو : ذو الوزارتين (أبوالوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون القرطبى المخزومى) تولى الوزارة (لآل جهور) فى (قرطبة) فى أعقاب انتهاء – (الخلافة الأموية) وبدء عهد (ملوك الطوائف) كما وليها (لآل عباد) فى (إشبيلية)، وكانت الممالك تتهاداه لعلمه وفضله وذكائه وطول باعه فى السياسة وفى الشعر والنثر .

وقد تنكر له زمانه دهرا فسجن طويلا ومرت به محن ثقال، ثم عافاه الله منها. وقد تعلق فى شبابه بالأميرة الشاعرة (ولادة) بنت الخليفة (المستكفى) من أواخر خلفاء (بنى أمية) الأندلسيين، وكانت بينهما ندوات أدبية ومطارحات شعرية ومن أجلها ألف رسالته (الهزلية) فى التهكم بالوزير (ابن عبدوس) [1] وألف (الرسالة الجدية) (لابن جهور) عندما سجنه يستعطفه، والرسالتان فى القمة من البلاغة، وكل منهما عجيبة فى بابها، وقد خلدتاه فى (النثر)، كما أحله شعره مرتبة الخلود بين شعراء الأندلس بل بين شعراء العربية حتى قرن (بالبحترى) فى (المشرق) فقيل فى (ابن زيدون) (بحترى المغرب)، وكانت وفاته عام ٤٦٣هـ .

(*) وبه نبدأ التأريخ لشعراء (عهد ملوك الطوائف) وراجع فى أدبه وترجمته (ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه. للدكتور/ حسن جاد).

وديوان ابن زيدون ورسائله شرح وتحقيق على عبدالعظيم ط دار نهضة مصر القاهرة ب.ت .

(١) غريمه فى التعلق بالأميرة (ولادة) ومحاولته التزوج بها.

ومن شعره في الفراق:

وَدّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ∴ ذائعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ على أَنْ لَمْ يكنْ ∴ زَادَ فِي تلكَ الخُطَى إذْ شَيَّعَكْ

يا أخا البدْرِ سناءً وَسَنًا ∴ حَفِظَ اللهُ زمانًا أَطْلَعَكْ

إنْ يكنْ قدْ طالَ لَيْلِي فلكَمْ ∴ بتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ معَكْ!

وكتب وهو في سجنه إلى أحد الرؤساء من أصدقائه ليشفع له:

مَا علَى ظَنِّيَ بَاسُ ∴ يَجْرَحُ الدهرُ ويَاسُو[1]

رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرْ ∴ ءِ على الآمالِ يَاسُ[2]

ولقَدْ يُنْجِيكَ إغْفَا ∴ لٌ، وَيُوْذِيكَ احْتِرَاسُ!

ومنها :

وكذا الْحُكْمُ : إذا مَا ∴ عَزَّ نَاسٌ ، ذَلَّ نَاسُ !!

نلْبَسُ الدنيا ولكنْ ∴ مُتْعَةٌ ذاكَ اللِّبَاسُ !!

يا (أَبَا حَفْصٍ) وَمَا سَا ∴ وَاكَ – في فَهْمٍ – (إِيَاسُ) [3]

أنا حَيْرَانُ ، وَلِلْأَمْ ∴ رِ وُضُوحٌ والْتِبَاسُ

ومنها :

فَعَسَى أَنْ يسمحَ الدهْ ∴ رُ ، فقدْ طَالَ الشِّمَاسُ[4]!

---

(١) باس : أصلها بأس بالهمز، وكذلك ياسو (يعالج) أصلها يأسو .

(٢) ياس: أصلها يأس وإنما خففت الهمزات من أجل وزن الشعر للضرورة .

(٣) (إياس) قاض عربي في العصور الأولى للإسلام، ضرب به المثل في الذكاء.

(٤) الشماس : الإباء، وأصله: الفرس يمنع أن يركب ظهره .

ومنها :

إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلِلْمَا ∴ ءِ مِنَ الصَّخْرِ انْبِجَاسُ
وَلَئِنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُو ∴ سًا ، فَلِلْغَيْثِ احْتِبَاسُ! .. الخ

وله القصيدة (النونية) الرائعة التى كتبها (لـولادة) بعـد رحيلـه الاضطرارى عن (قرطبة)، وقد ذاعت هذه القصيدة، وشـرق ذكرهـا وغرب، وأثنى عليه النقاد، وعارضها[*] كثير مـن الشـعراء قـديما وحديثا، وممن عارضها فى العصر (الحديث) أمير الشـعراء (أحمـد شوقى)، ومؤلف هذا الكتاب، وهـذه مقتطفـات مـن هـذه القصـيدة الخالدة[١]، قال (ابن زيدون):

أَضْحَى التَّنَائِى بديلاً مِنْ تَدَانِينَا ∴ وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
بِنْتُمْ وَبِنَّا ، فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ∴ شوقًا إِلَيْكُمْ ولا جَفَّتْ مَآقِينا[٢]
يَكَادُ ـ حينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ـ ∴ يَقْضِى علينْا الأَسَى، لوْلا تَأَسِّينا[٣]
حالتْ لفقدكمو أَيامُنَا فغدتْ ∴ سُودًا، وكانتْ بكمْ بِيضًا ليالينا[٤]
إِذْ جَانِبُ العيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنَا ∴ وَمَوْرِدُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

(*) (المعارضة) فى الشعر هى : [إنشاء شاعر (لاحق) قصيدة من وزن وقافية قصيدة شاعر (سابق) قاصدا مباراته فى جودة الأسلوب، والمعانى والصور، وغالبا ما يكون بين القصيدتين اتحاد فى (الغرض) أو (الموضوع)، أو تشابه فى بعض العناصر] •

(١) وتبلغ أبياتها واحدا وأربعين بيتا (راجعْها فى ديوانه) وفى (المنتخب من أدب العرب) وفى (قلائد العقيان) وفى (المغرب فى حلى المغرب).

(٢) الجوانح : الضلوع، والمراد ما تحتها من القلب والحشا، وَبِنْتُمْ وَبِنَّا: من البَيْنِ وَهُوَ البُعْد.

(٣) التأسى : التصبر •

(٤) حالت: تحولت وتغيرت •

ومنها :

لِيُسْقَ عَهْدكمو - عهدُ السُّرورِ - فما :. كنـتمْ لأرواحِنـا إلاّ رياحينـا

مَنْ مُبلغُ المُلْبِسينا - بانْتزاحِهمُو - :. حُزْنًا مع الدهرِ لا يبلَـى ويُبْلينـا(١):

أنَّ الزمانَ الذى مازالَ يُضْحِكُنا :. أُنْسًا بقُرْبكمو قدْ عادَ يُبْكينـا!

ما حقُّنا أنْ تُقِرُّوا عينَ ذِى حَسَدٍ :. بنا، ولا أنْ تسُرُّوا كاشحًا فينا(٢)

غيظَ العدَى مِنْ تَساقينا الهوَى فدَعَوْا :. بأنْ نَغصّ، فقال الدهرُ (آمينـا)(٣)!!

ومنها :

لمْ نَعْتَقِدْ بَعْدكمْ إلاَّ الوفـاءَ لكـمْ :. رأيًا، ولمْ نتقلّـدْ غيْـرَهُ دينـا

لا تَحْسَبُوا نـأْيكمْ عنّـا يُغيِّرنـا :. إنْ طالما غيَّرَ النَّأْىُ المُحبينـا

واللهِ ما طَلَبـتْ أهْوَاؤُنـا بـدلاً :. منكمْ، ولا انْصَرفَتْ عنكمْ أمانينا

ومنها:

ياسارِىَ البَرْقِ غادِ القصرَ فاسْقِ بِـهِ :. مَنْ كانَ صِرْفَ الهوَى والوُدِّ يسقينا

ويا نسيمَ الصَّبا بلّـغ تحيتَنـا :. مَنْ لوْ على البُعْدِ حيًّا: كانَ يُحْيينا!

ومنها :

لَسْنا نُسَمِّيكِ إجْـلالاً وتكْرمَـةً :. وقَدْرُكِ المُعْتَلى عَنْ ذاكَ يُغْنينا

إنْ كانَ قدْ عَزَّ فى الدنْيا اللِّقاءُ ففى :. مواقِفِ الحَشْرِ نَلْقاكُمْ ويَكْفينا!!

---

(١) الانتزاح: الافتراق •

(٢) الكاشح : المضمر للعداوة •

(٣) نغص: من الغصة وهى ما يعترض فى الحلق•

لَا غَرْوَ فِي أَنْ ذَكَرْنا الحُزْنَ حِينَ نَهَتْ ∴ عنهُ النُّهَى[١] وتركْنا الصَّبْرَ نَاسِينَا

* * * *

لَمْ يَخْفَ أُفْقُ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ ∴ سَالِينَ عَنْهُ، ولمْ نَهْجُرْهُ قَالِينا[٢]

ولا اخْتيارًا تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبٍ ∴ لكنْ عدتْنا-علَى كُرْهٍ-عَوَادينا[٣]

وفى ختامها يقول:

أَوْلِي وفاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً ∴ فَالذِّكْرُ يُقْنِعُنا، وَالطَّيْفُ يَكْفِينَا

وفِي الجواب اقتناعٌ لَوْ شَفَعْتِ بِهِ ∴ بِيضَ الأَيَادِي التى مَازِلْتِ تُولِينا

عَلَيْكِ مِنِّي سَلامُ اللهِ مَا بَقِيَتْ ∴ صُبَابَةٌ مِنْكِ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا

التعليق:

وقصيدة (ابن زيدون) هذه من التجارب العاطفية الفريدة فى الأدب العربى بعامة، فالمشاعر فيها حية نابضة، والأحاسيس صادقة عميقة، ترى فيها لوعة الفراق، ووصف مرارته وحرقته، ومدى ما تركه فى نفس الشاعر من جزع وأسى، وترى فيها مقارنة الحاضر المؤلم بالماضى الجميل أيام القرب واللقاء والود والصفاء، وما كان فيها من سعادة وغبطة، وهناءة وبهجة، وترى فيها تأكيد العهد على الوفاء، وطلب المعاملة بالمثل، ومناشدة النسيم والبرق إبلاغ التحية للأحبة النائين، وتعبيرا مؤثرا عن تذكره الدائم لأحبابه، ودعاء لهم فى

(١) النهى: العقل .

(٢) قالينا: من القلى وهو الكره .

(٣) عن كثب : عن قرب، عدتنا: صرفتنا .

ختام القصيدة بسلام من الله يلهج به قلبه ولسانه، مـا دام فيـه عـرق ينبض ونفس يتردد ٠

وقد أشرنا آنفا إلى أنه كان لهذه القصيدة أثر كبيـر فـى الأدب العربى منذ إنشائها حتى عصرنا الحديث، فأعجب بها الأدباء، وفـتن بها الشعراء، وعارضها كثير منهم، ونسوق إليك جانبا من معارضـة (شوقى) شاعر العصر الحديث إياها، وذلك عندما نفاه (الإنجليز) مـن (مصر) فى أثناء قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) ـــ لوطنيته ـ فاختار الإقامة فى (إسبانيا) حيـث آثـار المسـلمين فـى (الأندلس) وقال هذه القصيدة النونية (هناك) يتشوق فيها إلـى وطنـه الحبيب (مصر) ويندد بالمستعمرين المتحكمـين فيـه، مازجـا ذلـك بالإشارة إلى مجد المسلمين الزائل فى (الأندلس) ٠

يقول (أحمد شوقى) رحمه الله(*) :

يا نائحَ الطَّلْحِ أَشْـباهٌ عَوَادِينَـا ∴ نَشْجَى لِوادِيكَ أَمْ نأْسَى لِوَادِينَا[1]؟

ماذا تَقُصُّ علينا غَيْـرَ أَنَّ يَـدًا ∴ قَصَّتْ جناحَكَ جَالَتْ فى حَواشينا!

رَمَى بنا البيْنُ أَيْكًا غيرَ سامِرِنا ∴ -أخَا الغَرِيبِ- وَظِلاًّ غيرَ نَادِينا

كلٌّ رَمَتْهُ النَّوَى. رِيشَ[2] الفِراقُ لنا ∴ سَهْمًا، وَسُلَّ عَلَيْكَ البَيْنُ سِكِّينا!!

إِذا دعا الشوقُ لمْ نبرحْ بِمُنْصَدِعٍ ∴ مِنَ الجَناحَيْنِ عَـيٍّ لا يُلَبِّينَـا

(*) راجع هذه القصيدة فى ديوان (الشوقيات) جـ٢ صـ١٠٤ طبع (بيـرت)٠ وهى فى ٨٣ بيتا٠

(١) النائح: الباكى بصوت عال، والطلح شجر عظام، والعوادى: المصائب٠

(٢) ريش: أُعِدَّ، من راش السهم: ألصق عليه الريش٠

فَإنْ يكُ الجِنسُ يا ابنَ الطَّلْحِ فرَّقنا ∴ إنَّ المَصَائِبَ يَجْمَعْنَ المُصَابِينَا!
لَمْ تَأْلُ ماءَكَ تَحْنانًا وَلا ظمأً ∴ وَلا ادِّكارًا، وَلا شَجْوًا أفَانِينا[1]
تَجُرُّ مِنْ فَنَنٍ سَاقًا إلى فَنَنٍ ∴ وَتَسْحَبُ الذَّيْلَ تَرْتَادُ المُؤاسِينَا
أُسَاةُ جِسْمِكَ شَتَّى حين تَطْلُبُهُمْ ∴ فَمَنْ لِرُوحِكَ بالنُّطْسِ المُدَاوِينَا؟![2]

* * * *

آهًا لنا نَازِحِي أَيْكٍ (بأندلسٍ) ∴ وإنْ حَلَلْنَا رَفِيقًا مِنْ رَوابِينَا!
رَسْمٌ وَقَفْنا على رسْمِ الوفاءِ له ∴ نَجِيشُ بالدمعِ، والإجْلالُ يَثْنِينَا
لِفِتْيَةٍ لا تنالُ الأرضُ أدْمُعَهُمْ ∴ وَلا مَفَارِقَهُمْ إلاَّ مُصَلِّينا
لوْ لمْ يسودوا بدينٍ فيه مَنْبَهَةٌ ∴ للناسِ، كانتْ لهمْ أخلاقُهُمْ دِينا
نَسْقِى ثَراهمْ ثناءً كلما نُثِرَتْ ∴ دموعُنا، نُظِمَتْ منها مَرَاثِينا[3]!
كادتْ عيونُ قوافِينا تُحَرِّكُهُ ∴ وَكِدْنَ يوقِظْنَ في التُّرْبِ السَّلاطينا[4]!

ونترك التعليق على قصيدة شوقى إلى فرصة أخرى إن شاء الله، ولعل من المناسب أن نسوق إليك أيضا جانبا من (المعارضة) التى أنشأها (كاتب هذه السطور) [*] عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م فى (المدينة

---

(١) لم نأل: لم ندخر وسعا، والشجو: الحزن .
(٢) الأساة: الأطباء، والنطس: جمع نطاسى وهو الطبيب الماهر .
(٣) الثرى : المراد به هنا تراب الأموات من أهل الأندلس المسلمين، والمراثى: قصائد الرثاء .
(٤) السلاطين: المراد بهم ملوك الأندلس الإسلامية وآخرهم: سلاطين بنى الأحمر .
(*) الدكتور/ محمد عبدالمنعم العربى وراجعها فى ديوانه (الومضات) صـ ٩٨ ط دار الأرقم بالزقازيق عام ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .
وقد رأينا إيراها لما لها من صلة قوية بالأندلس وشاعرها (ابن زيدون) ولما فى القصيدتين من العناصر المشتركة .

المنورة)، عندما كان مبتعثا للتدريس فى السعودية، [يتشوق فيها إلى أهله (بمصر)]، و[يُحَيِّى ذكرى الشاعر (ابن زيدون)] التى أثارتْها بعضُ المحافلِ الثقافيةِ (العربية والأسبانية) فى ذلك الوقت.

وقد مزج فى قصيدته بين العنصرين المشار إليهما فبدأ بالشوق ولوعة الفراق — وهو غرض مشترك بينه وبين (ابن زيدون)، وثنى بتحية حارة لأهل الأندلس (العربية المسلمة) السابقين مشيدا بما أقاموه من حضارة باهرة وفنون زاهرة، وما خلفوه من آداب فاخرة منوها بما أنجبت أرضهم من عباقرة أفذاذ ونوابغ أمجاد.

ثم خص بالتحية شاعر الأندلس العظيم (ابن زيدون) مخاطبا إياه، مشيدا بمواهبه الباهرة فى السياسة والإدارة، وعبقريته الخلاقة فى الشعر والنثر، مشيرا إلى بعض ما لاقاه من كيد أعدائه وعنت أيامه، مبجلا ما أحله فيه التاريخ من منازل المجد والخلود، وهذه هى القصيدة[١] أو معظمها:

هَذا التَّذكُّرُ للأحبابِ يُبكينا ∴ ويُشعِلُ الوجدَ نيرانا ويُشقِينا

مَا أَصْعَبَ الهجرَ مِمَّنْ كانَ وصْلُهُمُو ∴ أَشْهَى الرِّغَابِ ، وكانَ القُرْبُ يُحْيِينا

وَمَا أَمَرَّ فِراقا قد جَرَى قَدَرًا ∴ فما نُطِيقُ له دَفْعًا وتَهْوِينَا

* * *

(١) وعدة أبياتها ٢٥ (خمسة وعشرون بيتا).

ومنها :

(يا أهلَ أندلسٍ لله دَرّكُمُو) ∴ قدْ كنتمو سادةَ الدنيا المُهابينَا
يا أهلَ أندلسٍ سُقْيًا لعهْدكمو ∴ كمْ شِدتمو مِن حضارات أفانينَا
يا أهلَ أندلسٍ شوقًا لِخُبْرِكُمُو[1] ∴ مَا زلتمو أهلَ آدابٍ تُوَاتينَا
أَفْدِيكمُوَ أهلَ مجْدٍ بَاذخٍ[2] وأُولِي ∴ سَمَاحةٍ وأُولى فَنٍّ ينادينا
كم أنبتتْ أرضُكمْ فى طيب تُرْبَتِها ∴ مِنْ عَبْقَرِيٍّ وكَمْ أعطتْ مَيامِينَا

* * * *

ويا (ابنَ زيْدونَ) يا زينَ الرجالِ بِهاَ ∴ للهِ أنتَ عظيمًا يا ابنَ زيدونَا!
حُزْتَ المواهبَ شتَّى: هِمَّةً وحِجًى ∴ فأنتَ مَنْ قدْ غدَا بالفضْلِ مَشْحونا!
وقدْ ملكتَ دهاءً فى السياسةِ، كمْ ∴ وَطَّدتَ مُلْكًا وكمْ مَكَّنْتَ تمكينا!!
أَنْتَ الوزيرُ الذى كانتْ مَمَالِكُهَا ∴ تَهْفُو إليكَ، وتَرْجُو مِنْكَ تَزْيِينَا

* * * *

أَمَّا القَرِيضُ فقد أَلقَى أَزِمَّتَهُ ∴ إليكَ، حتَّى حَبَاكَ الدُّرَّ مكْنُونَا
للهِ (شِعْرُكَ) رقيقُ النَّسْجِ صِرْتَ بِهِ ∴ (بالبُحْتُرِيِّ) أَميرِ الشِّعْرِ مَقْرُونَا
وَنِلْتَ فِى دَوْلَةِ (النَّثْرِ) الصَّدارَةَ إِذْ ∴ بَلَغْتَ فِيهِ مَدَى الإِبْدَاعِ تَحْسِينَا
للهِ مَا أَثْمَرَتْ يُمْنَاكَ مِنْ أَدَبٍ ∴ زَاكٍ، فَمَا خِلْتُهُ إِلاَّ رَيَاحِينَا!

* * *

(١) الخبر بضم الخاء وتسكين الباء: هو الخبر بفتحهما .
(٢) باذخ : عال.

وَيْحًا(١) لِمِثْلِكَ يَنْحُوهُ البلاءُ، فَلا ∴ تَلْقَاهُ إِلَّا أَسِيرَ الظلمِ مَسْجُونَا!
ويحا لِمِثْلِك يقْضِى عُمْرَهُ قَلِقًا ∴ مُفَزَّعًا، وَيَبيتُ الليلَ مَحْزُونَا!!
لا غَرْوَ(٢) عاداكَ مَنْ عاداكَ عَنْ حَسَدٍ ∴ فَصَارَ يَرْمِى إليكَ الشَّرَّ مَجْنُونَا!
لكِنْ سَمَوْتَ لآفاقٍ مُبَجَّلَةٍ ∴ عَزَّتْ،وَصَارَ بها التَّارِيخُ مَفْتُونَا!

* * * *

وبعد هذه الجولة مع الشاعر (ابن زيدون) نمر مرا سريعا — لضيق المقام — على سائر مشهورى شعراء (مرحلة ملوك الطوائف) (وما بعدها) مكتفين لكل منهم بتعريف موجز مرجئين عرض بعض نتاجهم إلى مواطن الاستشهاد بها فى الأغراض الشعرية، وعند التعرض للخصائص الفنية (للشعر الأندلسى) بعون الله تعالى. فمنهم (ابن الأبار) أبوعبدالله محمد المتوفى عام ٤٣٣هـ ، و(ابن عمار) ذو الوزارتين (أبوبكر محمد بن عمار) المقتول بيد أميره (ابن عباد) عام ٤٧٧هـ ٠

و(ابن صمادح) المعتصم أبويحيى محمد بن معن التجيبى ملك (المرية) و(بجاية) و(الصمادحية) المتوفى عام ٤٨٤هـ فى عهد (المرابطين)، ومنهم الأديب البارع والشاعر المبرز (المعتمد ابن عباد) ملك (إشبيلية) المعزول والمتوفى بمنفاه فى (أغمات) من أعمال (المغرب) عام ٤٨٨هـ . ومنهم (ابن برد الأصغر) المتوفى حوالى

---

(١) ويحا: كلمة ترحم وتوجع ٠
(٢) لا غرو: لا عجب٠

عام ٤٨٥هـ . ومنهم (ابن اللبانة) أبوبكر محمد بن عيسى المتوفى عام ٥٠٧هـ . شاعر الوفاء الذى وفى لابن عباد فى حياته وبعد مماته. ومن الشاعرات فى هذه الحقبة: (ولادة) صاحبة (ابن زيدون) وهى الأميرة (ولادة) بنت الخليفة الأموى (محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفى بالله) الذى ولى الخلافة ستة عشر شهرا ثم عزل، وكانت أديبة بارعة وشاعرة مجيدة وكان لها مجلس فى (قرطبة) ينتابه أهل الأدب والشعر للمساجلة والمناقشة وقد توفيت عام ٤٨٠هـ ، ومنهن (مهجة) بنت التيانى القرطبية صديقة (ولادة) ، وشبيهتها فى الجمال والفصاحة والدعابة (وحفصة بنت الحاج الركونية) وغيرهن.

فإذا دخلنا إلى القرن (السادس الهجرى) وجدنا شعراء عظماء مبدعين فى مقدمتهم (ابن خفاجة) الملقب بصنوبرى الأندلس[1] وهو (أبوإسحاق إبراهيم بن عبدالله) شاعر شرقى الأندلس وأشهر وصافى الطبيعة بالأندلس سماه الأندلسيون (الجنان) لولعه بالحدائق والبساتين وطول جلوسه فيها وكثرة تأمله محاسنها وقصر معظم شعره عليها، وقد توفى عام ٥٣٣هـ. ومنهم (ابن حمديس الصقلى) وهو (عبدالجبار بن أبىبكر) المتوفى عام ٥٢٧هـ، و(ابن زهر) محمد بن عبدالملك م٥٩٦هـ (والرصافى) محمد ابن غالب م٥٧٢هـ . وعبدالمجيد (ابن عبدون) الشاعر الكاتب الذى كان يحفظ ــ فيما قيل ــ كتاب (الأغانى)

---

(١) نسبة إلى الشاعر الحلبى المشرقى (أحمد بن محمد الصنوبرى) م٣٣٤هـ ، وكان معظم شعره فى وصف الأزهار والرياض وله فيها روائع بديعة.

لأبىالفرج الأصبهانى على طوله والذى رثـى دولـة (بنىالمظفـر) بقصيدته الرائية المشهورة التى مطلعها:

الدَّهْرُ يفْجعُ بَعْدَ العـيْنِ بـالأثَرِ .·. فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأشْبَاحِ والصُّوَرِ؟

وقد توفى عام ٥٢٠هـ و(أبوبكر بن القبطرنة) من أدباء غـرب الأندلس وهو (عبدالعزيز بن سعيد) من أهل (بطليوس) والمتوفى بعـد ٥٢٠هـ ، و(ابن الزقاق) م٥٢٨ وأبوالحسين (ابن سراج) م٥٠٨هـ.

ومن مشهورى شعراء (القرن السابع الهجـرى) (ابـن سـهل) الشاعر الرقيق الوشاح (إبراهيم بن سهل الإشبيلى الأندلسـى) وكـان يلقب قبل أن يسلم (بالإسرائيلى) لأنه كان يهوديا وقد مات غرقا عـام ٦٤٩هـ، وله ديوان لطيف مطبوع، ومنهم (ابن الأبار) (محمـد بـن عبدالله القضاعى البلنسى) [١] المتوفى عام ٦٥٩هـ وهو صاحب كتاب (التكملة) فى التراجم الأندلسية. ومنهم (محمد بـن جبيـر) الرحالـة المشهور المتوفى عام ٦١٤هـ ، و(ابن قطرال) م٦٥١هـ ، و(أحمـد ابن فرج الإشبيلى) المتوفى عام ٦٩٩هـ. و(محمد بن محيىالدين بـن عربى) المتوفى عام ٦٥٦هـ و(عبدالواحد التميمى) ٦٢١هـ ، و(ابن الوزير البطرنى) ٦٣٧هـ و(أبوالحسن العنسى) على بن موسـى بـن عبدالملك م٦٨٥هـ.

ومن شعراء (المائة الثامنـة) الخطيـب الشـريف (أبوالقاسـم الحسينى) قاضى الجماعة (بغرناطة) المتوفى عام ٧٦٠هـ. شـارح

---

(١) نسبة إلى (بلنسية) فى شرق الأندلس.

(مقصورة) الإمام حازم الأنصارى و(ابن خاتمة الأنصارى) أبـــوجعفر أحمد بن على بن محمد من أهل (المرية) عالم أديب، دمـــث الطبـــاع عذب المحضر، توفى حوالى عام ٧٧٠هـــ . والوزير (ابن الخطيـــب) لسان الدين (محمد بن عبدالله) الشاعر الناثر المؤلـــف المقتـــول عـــام ٧٧٦هـــ. والوزير (ابن زمرك الغرناطى) محمد بن يوسف بن محمـــد المقتول حوالى عام ٧٩٦هـــ.

وإلى هنا نكون قد ألممنا بأشهر القمم العالية، والأعلام الســـامية فى الشعر الأندلسى، مع الاعتراف بأننا أغفلنا الكثير لا عن تقصـــير، ولكن لضيق المقام، وفيمن ذكرنا بلاغ إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

أغراض الشعر الأندلسى

نزح الشعر إلى الأندلس ــ كما نزحت اللغــة ــ مــن المشــرق (فالمشارقة أساتذة) الأندلسيين وقدوتهم[١]، وقد خاض شعراء الأندلسيين فى كل ما خاضه أسلافهم من شعراء المشــرق القــدماء فقــالوا فــى الحماسة والفخر، وفى المدح والهجاء، وفى الغزل والوصــف، وفــى الرثاء والاعتذار، وفى الشراب والخمر، وفى الحكمة والمثل٠

كذلك خاضوا فيما خاض فيه معاصروهم من المشارقة المحدثين كالغزل بالمذكر والمجون، وفى الزهد والتصــوف، وفــى الفلســفيات والشعر التعليمى٠

وقد (ساوى) الأندلســيون المشــارقة فــى بعـض الأغــراض، و(قصروا) عنهم فى (بعضها)، و(تفوقوا) فى البعض الثالث٠

١ - فمما ساووهم فيه: (الغزل) لوفرة الجمال وكثــرة ألوانــه عندهم (والوصف) لسحر بلادهم وحسنها الفتان ــ كما أشرنا من قبــل ــ والإخوانيات لكثرة دواعى المخاطبات بالشعر عندهم ٠

٢ - ومما قصروا فيه: (الحماسة والفخر)، و(الزهد) و(الفلسفة) أما الحماسة والفخر فلأن عامة جيوشهم كانت من (البربر) [٢]، وأمــا

---

(١) بحكم السبق التاريخى، فقد سبق المشارقة الأندلسيين إلى معرفة الشعر بقرن فى الإسلام، وأكثر من قرن ونصف فى الجاهلية ٠

(٢) البربر : شعب كبير أكثره قبائل تسكن الجبال فى شمال إفريقية وتحديدا فى (الجزائر) و(المغرب) ، وهم بيض الوجوه وبعضهم زرق العيون لاختلاطهم بالروم قبل الإسلام ٠

الزهد، فلأنهم كانوا أميل إلى الترف والإقبال على الدنيا وأما الفلسفة فإن أمراءهم وعامتهم كرهوها فقل من اشتغل بها.

٣ - ومما تفوقوا فيه : (رثاء المدن الضائعة، والممالك الزائلة) نظرا للظروف التى مرت بهم، والنكبات التى حلت عليهم، والخطوب التى أحاطت بهم، وانتهت بسقوط بلادهم فى أيدى أعدائهم.

كذلك تفوقوا فى غرض (الاستنجاد)، بملوك الإسلام المجاورين لهم للسبب السابق كما تفوقوا فى (نظم العلوم) وحسبك (بألفية ابن مالك) التى غطت على ما عداها فى (علم النحو)، وبمنظومة (الشاطبية) التى انفردت بالخلود فى (علم القراءات)، ومنظومة (ابن فرج الإشبيلى) فى علم (مصطلح الحديث) ، وهذه أنماذج من أغراض الأندلسيين:

١ - (الوصف) : ومن أبدعه قول (ابن خفاجة) يصف نهرا:

لِلهِ نهرٌ سال فى بطحاءِ ∴ أشْهَى وُرُودًا مِنْ لَمَى الحَسناءِ!

متعطّفٌ مثلُ السِّوارِ كأنَه ∴ والزهرُ يكْنُفُهُ مَجَرُّ سماءِ!

قد رقَّ حتى ظُنَّ قرصا مفرغًا ∴ مِنْ فضةٍ فى بُرْدةٍ خضراءِ

وغدتْ تحفُّ به الغصونُ كأنَها ∴ هُدْبٌ يحُفُّ بمقلةٍ زرقاءِ

والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقد جرى ∴ ذهبُ الأصيلِ علَى لُجَيْنِ الماءِ!

وراجع صـ١٤ من هذا الكتاب .

وقول (ابن وهبون) يصف (النيلوفر) وهو ضرب من الرياحين:

وبركــةٍ تزهــو بِنَيْلَــوْ فَــرٍ .:. نسيمهُ يشــبهُ روحَ الحبيــبْ!
حتــى إذا الليــل دنــا وقتُــهُ .:. ومالت الشمسُ لعيْنِ المَغِيــب
أَطبــقَ جفْنَيْــهِ علــى إلفــهِ .:. وغاصَ فى الماءِ حِذَارَ الرَّقيب!!

٢ - (الفخر والحماسة) : (للمعتمد بن عبــاد) يفتخــر بشــرفه ومجده على الرغم من فقده ملكه[1]:

إِنْ تســتلبْ منــى الــدُّنَى .:. ملْكــى وتُسْــلمْنى الجمــوعُ
فالقلـــبُ بـــين ضــلوعِهِ .:. لــمْ تُسْــلِمِ القلــبَ الضــلوعُ
لــمْ أُسْــتَلَبْ شــرفَ الطبــا .:. ع ، أَيُسْلَبُ الشرفُ الرفيــعُ؟!
قــدْ رُمْــتُ يــومَ نــزالِهِمْ .:. أَلاَّ تُحَصِّــنَنِى الــدُّروعُ
وبــذلتُ نفســى كــىْ تسيــ .:. ـلَ إذا يســيلُ بهــا النَّجِيــعُ
أَجَلِــى تــأَخَّرَ، لــم يكــنْ .:. بهــواىَ ذُلِّــى والخشــوعُ
مَــا ســِرْتُ قَــطُّ إلــى القِتَــا .:. لِ وكان مِــنْ أَملــى الرُّجــوعُ
شِــيَمُ الأُلَــى أنــا منهمــو .:. والأَصْــلُ تَتْبَعُــهُ الفــروعُ

(ولأبى عبدالله الشلبى) فى وصف إحدى المعارك:

ولما تلاقَيْنا جرى الطعنُ بيننــا .:. فمنا ومنهم طــائِحونَ عديــدُ
وجالَ غِرارُ الهِنْدِ فينا وفيهمــو .:. فمنا ومــنهم قــائمٌ وحصــيدُ

---

(١) كان (المعتمد) من أعظم ملوك الطوائف شأنا، وقد زال ملكه علــى أيــدى (المرابطين) الذين غصبوه ملكه ونفوه إلى (المغرب) فى بلدة (أغمات) حتى مات بها ٠

صبرْنا ولا كهفٌ سوى البيضِ والقنَـا ∴ كلانا على حَـرِّ الجِـلادِ جليـدُ
ولكــنْ شَـددْنا شـدةً فتبلَّـدوا ∴ ومَـنْ يتبلَّـدْ لا يـزال يَحيـدُ
فولَّوْا وللسُّمْرِ الطوالِ بِهَا مِهـمْ ∴ ركوعٌ وللبيضِ الرقاقِ سجودُ!!

٣ – (الرثاء) : ومنه (لأبىبكر بن عبدالصمد) شاعر (المعتمـد بن عباد) يرثيه بعد وفاته مأسورا فى (أغمات) ببلاد (المغرب):

ملكَ الملوكِ: أَسـامعٌ فأنـادى؟ ∴ أمقدْ عدتكَ عن السَّماع عوادِ؟؟
لما خلت منك القصورُ ولم تكـنْ ∴ فيها كما قد كنت فى الأعيـادِ!
أَقبلْتُ فى هذا الثرى لك خاضعا ∴ وجعلتُ قبرَكَ موضعَ الإنشـادِ!
قد كنتُ أَحْسَبُ أَن تُبَدِّدَ أَدْمُعِـى ∴ نيرانَ حزنٍ أُضْرِمَتْ بفـؤادى!
فــإذا بـدمعى كُلِّـهِ أَجْرَيْتُـهُ ∴ زادتْ عليـهِ حـرارةُ الأكبـادِ
فالعينُ فى التَّسْكابِ والتَّهتّانِ والْـ ∴ أَحْشاءُ فى الإحراق والإيقـادِ!!
يا أيها القمـرُ المنيـرُ أهكـذا ∴ يُمْحَى ضـياءُ النيـِّر الوقـادِ؟
ما كان ظنى قبل تركـك أَنْ أَرَى ∴ قبرا يضمُّ شـوامخَ الأَطـوادِ!
الْهَضْبَةُ الشَّمَّاءُ تحتَ ضـريحِهِ ∴ والبحـرُ ذو التَّيَّـار والإِرْبَـادِ

٤ – (الاستنجاد) : ومنه قول الشاعر (أبى عبدالله بـن الأبـار القضاعى) يستنجد بملك المغرب (زكريا بن أبىحفص)، لإنقاذ الأندلس من هجمات جيوش النصارى:

أَدْرِكْ بخيلكَ ــ خيلِ اللهِ ــ أندلسا ∴ إن السبيلَ إلى مَنْجَاتها دَرَسَا[1]

---

(١) درس الرسم: عفا أى زال وبابه دخل .

وهبْ لها من عزيز النصر ما التمستْ .·. فلم يزلْ منك عِزّ النصرِ مُلْتمسـا
وَحاشِ مما تُعانيه حُشَاشَـتَهَا(١) .·. فطالما ذاقت البلْوَى صباحَ مَسَا
يا للجزيرةِ أضحى أهلُها جـزَرًا .·. للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعِسَا(٢)
فى كلّ شـارقةٍ إلْمَـامُ بارقـةٍ .·. يعودُ مأْتمُهَا عند العِدا عُرُسَا!
وفى (بَلَنْسِيَةٍ) منهـا و(قُرْطُبَـةٍ) .·. ماينسفُ النفسَ أو مايُنْزِفُ النَّفَسَا!!
مدائنٌ حلَّها الإشـراكُ مبتسـمًا .·. جذلانَ وارتحلَ الإيمانُ مُبْتئِسًا!!
كانـت حـدائقَ للأحـداقِ مونقـةً .·. فَصَوَّحَ النَّضْرُ مِنْ أرواحِها وَعَسَـى(٣)
سُرْعَانَ ما عاثَ جيشُ الكفرِ وَاحَزَنَا .·. عيثَ الدَّبَى فى مغانيها التى كَبَسـا(٤)!
محَـا محاسِـنَهَا طـاغٍ أتـاحَ بهـا .·. ما نامَ عن هَضْمِها حينا ولا نَعَسَا!

* * * *

صِلْ حَبْلها أيها المولى الرحيمُ فمـا .·. أبقَى المِراسُ لها حَبْلاً ولا مَرَسَا(٥)!
طَهِّرْ بلادَك منهم، إنهـم نَجَـسٌ .·. ولا طهارةَ ما لم تَغسِلِ النَّجِسَا
وَأوْطِئ الفيْلَقَ الجرارَ أرضَهُمُو .·. حتى يُطَأطِئَ رأْسًا كلُّ مَنْ رَأسا(٦)
واملأْ هُديتَ إلى التأييد سـاحتَها .·. جُرْدًا سَلاهِبَ أَوْ خِطِّيةً دُعُسَا(٧)

---

(١) حاش : المراد: أدرك، وحشاشتها: ما بقى منها ٠
(٢) الجزر : كل ما يباح للذبح، والجد: الحظ ٠
(٣) شارقة: يوم، بارقة: سحابة ذات برق، الأحداق: العيون، صـوح: جـف ، وعسا: يبس٠
(٤) الدبى: الجراد ٠
(٥) المراس: طول المعاناة، والمرس حركة الخيل٠
(٦) الفيلق : الجيش٠
(٧) جردا: خيلا خفيفة الشعر، سلاهب: طويلة عظيمة، خطية دعسـا: رماحـا جيدة الطعن ٠

واضربْ لها موعدًا بالنصرِ نَرْقُبهُ ∴ لعلَّ يومَ الأعادى قدْ أتى وعَسَى!

٥ – رثاء المدائن والدول ومنه قصيدة (أبى البقاء صالح بن شريف الرندى) المشهورة فى رثاء ما ضاع من بلاد الأندلس، واستنهاض الهمم لإنقاذ ما بقى منها :

لِكُلِّ شىءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ ∴ فلا يُغَرَّ بطيب العيشِ إنسانُ
هى الأمورُ كما شاهدتُهاَ دولٌ ∴ مَنْ سَرَّهُ زمنٌ ساءتْهُ أزمانُ
فجائعُ[1] الدهرِ أنواعٌ منوعةٌ ∴ وللزمانِ مَسَرَّاتٌ وأَحْزَانُ
وللحوادثِ سُلْوَانٌ يُسَهِّلُهَا ∴ وما لِما حَلَّ بالإسلام سلوان!
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ لهُ ∴ هَوَى له (أُحُدٌ) وانْهَدَّ (ثَهْلَانُ) [2]
تبكى الحنيفيةُ البيضاءُ من أَسفٍ ∴ كما بكى لفراقِ الإلْفِ هَيْمَانُ[3]
على ديارٍ من الإسلام خاليةٍ ∴ قد أقفرتْ، ولها بالكفر عُمْرَان!
يا غافلًا وله فى الدهر موعظةٌ ∴ إن كنتَ فى سِنَةٍ فالدهرُ يَقْظَان[4]
يا راكبينَ عِتاقَ الخيلِ ضامرةً ∴ كأنها فى مجالِ السَّبْقِ عُقْبَان[5]
وحاملينَ سيوفَ الهِنْدِ مرهفةً ∴ كأنها فى ظلامِ النقْعِ نيران[6]
وراتعينَ وراءَ البحرِ فى دَعَةٍ ∴ لهمْ بأوطانهمْ عِزٌّ وسلطانُ

(١) فجائع: جمع فجيعة وهى المصيبة .
(٢) أحد وثهلان جبلان .
(٣) الحنيفية : الملة المعتدلة المائلة عن الباطل وهى الإسلام.
(٤) السنة: النوم الخفيف.
(٥) عقبان: جمع عقاب وهو طائر كبير كالنسر.
(٦) النقع: الغبار والمراد به غبار المعارك الذى تثيره الخيل بسنابكها .

أعندكمْ نبأٌ مِـنْ أَهـلِ أنـدلسٍ ∴ وقدسرَى بحديثِ القومِ رُكْبانُ؟؟!
ألا نفوسٌ أبيـّاتٌ لهـا هِمـَمٌ؟ ∴ أمَا على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ؟!!

* * * *

يا مَنْ لِذلّةِ قومٍ بعـدَ عِزِّهمُـوُ ∴ أحالَ حالَهمو كفـرٌ وطُغيـانُ!
بالأمسِ كانوا ملوكا فى منازِلِهمْ ∴ واليومَ همْ فى بلادِ الكُفْرِ عُبْدانُ!
يا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حِيـلَ بينهمـا ∴ كما تَفـرّقَ أزْواجٌ وأبْـدانُ!!
لِمثْلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَـدٍ ∴ إنْ كانَ فى القلبِ إسْلامٌ وإيمانُ!!!

* * * *

٦ ، ٧ – (الغزل والمدح) : أما هذا الغرضان فنحيلك على مـا أوردناه منهما عند الكلام على (الشعراء)، فنجد (الغزل) فيما جئنا بــه (لابن زيدون) [١] وتجد المدح فى مختاراتنا (لابن دراج القسطلى) [٢]، وذلك تجنبا للإطالة.

---

(١) راجع ص١١٦ من هذا الكتاب.
(٢) راجع ص١٠٨ ، ١٠٩ من هذا الكتاب.

الفصل الخامس

تطور الشعر فى العصور الأندلسية

بلغ الشعر[١] أوج نهضته فى أيام (الدولة الأموية)، التى هى أيام عظمة الدولة، وعزة الخلافة، ووحدة البلاد وقوتها من النواحى السياسية والحربية والحضارية، ولا يخفى أن من وراء ذلك عروبة الخلفاء والأمراء، واعتزازهم بتلك العروبة، فهم أمويون قرشيون، وأصحاب مجد شامخ وعز تالد .

وجاء بعدهم عهد (ملوك الطوائف) فظل الشعر على ازدهاره واستمر فى نهضته على الرغم من تمزق الدولة الأندلسية وانقسامها إلى دويلات، وما تبع ذلك من ضعفها سياسيا وحربيا — وهى (ظاهرة غريبة) تشبه ظاهرة استمرار نهضة الآداب والعلوم فى (المشرق) (فى العصر العباسى الثانى) على الرغم من تفكك الدولة العباسية وانقسامها إلى دويلات أيضا ضعيفة متناجرة، والسبب هنا (كالسبب هناك) أن ملوك الطوائف شجعوا الأدباء والشعراء والعلم والعلماء، وأغدقوا عليهم العطايا والصلات، وحرصوا على الاستكثار منهم واستقدام العديد منهم، ليكونوا زينة لدولهم وفخرا لإماراتهم وممالكهم[٢] — إلى جانب أن معظم (ملوك الطوائف) كانوا هم أنفسهم علماء وشعراء وكتابا، (كالمعتمد بن عباد) ملك (إشبيلية) وما حولها، (والمعتصم ابن صمادح) ملك (المرية) و(بجاية) وغيرهما .

---

(١) وكذلك النثر، (والعلم الثقافة) بوجه عام .
(٢) وتنافسوا فى ذلك تنافسا كبيرا .

ثم جاء (عهد المرابطين) فضعف الشعر بعض الضعف، لكــون المرابطين من (البربر) الذين لا يفهمون الشعر، ولا يعبئــون بــه إلا قليلا.

ثم انتعش الشعر فى (عهد الموحدين) لأنهم عرب يستمعون إلــى الشعر ويثيبون عليه.

وزاد انتعاش الشعر، وارتدت إليه روحه، واسترد رونقه وبهجته فى (عصر بنى الأحمر) آخر عصور الأندلس، ولا عجب فقــد كــانوا عربا صرحاء من سلال الأنصار، وذرية الصحابى الخزرجى (ســعد بن عبادة) ﷺ.

الخصائص الفنية للشعر الأندلسى

١- فى الألفاظ والأساليب :

امتازت ألفاظ الأندلسيين وأساليبهم بالسهولة الشــديدة والعذوبــة التامة، والذوق السليم فى اختيار الكلمات وصياغة الجمل والعبــارات، وذلك ملائم لنعومة عيشهم وصفاء أمزجتهم، ورقة طباعهم، وإحاطــة الجمال بهم فى كل مظاهر حياتهم، وتنوع مجالى الحسن وألوانه فــى بيئتهم الطبيعية والحضارية.

كما امتازت (بقلة الدخيل) [1]، لأن اللغات المحلية الأعجمية لــم تزاحم العربية فى علم ولا أدب (كما فعلت الفارسية مع العربية (فــى المشرق) أيام العباسيين) كذلك امتازت أساليبهم (بقلة البديع) والاعتدال

---

(١) من الكلمات الأعجمية.

فى استعماله ، على عكس (المشارقة) الذين أسرفوا فى استعماله فـــى أواخر العصر العباسى وما بعده من العصور ، وأكثر ما مـــال إليـــه الأندلسيون من البـــديع: (حســـن التعليـــل) و(الجنـــاس) و(الطبـــاق) و(التورية)، وسنورد لذلك بعض أمثلته قريبا٠

٢ـ فى المعانى والأفكار :

وقد امتازت معانى الأندلسيين (بالقرب والوضوح) والابتعاد عن التعقيد والغموض لأنهما لا يشاكلان حياتهم اللينة٠

كذلك امتازت المعانى (بتقرير الواقع والابتعاد عن المبالغـــة) إلا ما كان من قليل من شعرائهم (كابن هانئ) و(ابن عمار)٠

ومما يؤخذ على معانيهم (قلة الابتكار) فيها اكتفاء منهم بالإلمـــام بمعانى شعراء المشارقة والتوليد منها٠

ومن صفات معانيهم (البعد عن البرهنة والمنهج العقلـــى) وذلـــك من أثر إعراضهم عن دراسة (المنطق والفلسفة) خلافـــا (للمشـــارقة) الذين توسعوا فى دراستهما فأثر ذلك فى شعرهم فوجد منهم الشـــعراء الحكماء (كأبى تمام) و(المتنبى) و(المعرى) ـــ ومما هو بسبيل من ذلك (قلة الحكم والأمثال) فى أشعار الأندلسيين، لاقتصارهم علـــى الثقافـــة العربية، فخلا شعرهم من التأملات العميقة والنظرات النقدية فى الحياة والمجتمع مما نجده كثيرا عند شعراء المشرق (كالمتنبى) و(أبى العلاء المعرى) و(الطغرائى) ٠

ومع ذلك فللأندلسيين حظ موفور فى ترابط الأفكار فـــى داخـــل قصائدهم ومقطوعاتهم وفى تحقيق (الوحدة الموضوعية) فيها وبخاصة فى قصائد (الاستنجاد)، ورثاء المدن والممالك الزائلة التى مرت بـــك أنماذج منها ٠

٣ ـ فى التصوير والخيال :

لقد أثرت البيئة الأندلسية الجميلة، وما أقامـــه الأندلســـيون مـــن حضارة بديعة فى صورهم الشعرية إلى جانب اســـتعدادهم الفطـــرى القوى، فجاء خيالهم (قويا رائعـــا)، و(خصـــبا محلقـــا) وتفننـــوا فـــى التصوير، فجاءوا فيه بالغرائب والفرائد والعجب العجاب، وأبدعوا أيما إبداع فى التشبيهات والاستعارات والكنايات وما إليها حتى لقد كـــادوا يتفوقون على (المشارقة) فى هذا الباب ٠

وإليك أنماذج لما أبدعته أخيلتهم من صور جميلة مصـــوغة فـــى أساليب رائعة أخاذة :

فمن ذلك قول (ابن الأَبَّار) فى وصف نهر:

ونهرٍ كما ذابتْ ســبائكُ فضــةٍ ∴ حكى بِمَجَانيه انْعطافَ الأَرَاقِمِ[1]
إذا الشفقُ استولى عليه احْمــرارُهُ ∴ تبدَّى خضيباً مثلَ دَامِى الصَّــوَارِمِ[2]

(١) الأراقم: الحيات٠
(٢) الصوارم: السيوف القاطعة ٠

ففى البيتين ثلاث تشبيهات جميلة ·

وقول (ابن خفاجة) فى وصف نهر أيضا:

والريحُ تعبثُ بالغُصُونِ وقد جَرَى ∴ ذهبُ الأَصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ

فجمع فى بيت واحد بين استعارة مكنية جميلة وتشبيهين بديعين ·

وقول (ابن حمديس الصقلى) فى وصف (البرد) ـــ وهو كرات الثلج الصغيرة التى تنزل أحيانا مع المطر :

نثر الجوُّ علَى التُّرْب بَرَدْ ∴ هو دُرٌّ لنحورٍ لوْ جَمَدْ!

لؤلؤٌ أصدافُهُ السُّحْبُ التى ∴ أَنْجَزَ البارقُ فيها مَا وَعَدْ!

وقد اشتمل البيتان على تشبيهين جميلين واستعارة لطيفة·

وقول (ابن رباح) فى وصف (ثريا) أوقدت مصابيحها[1]:

انْظُرْ إلى سُرُجٍ بالليلِ مشرقةٍ ∴ من الزجاجِ تراها وَهْيَ تلتهبُ

كأنها أَلْسُنُ الحياتِ قدْ برزتْ ∴ عندَ الهجيرِ فما تنفكُّ تَضْطَرِبُ!

ففى البيتين تشبيه تمثيلى بديع ·

وقول (الرصافى) فى وصف (الدولاب) [2]:

وَذِى حَنِينٍ يكادُ شَجْواً ∴ يختلسُ الأنفسَ اختلاسَا

يبتسمُ الروضُ حينَ يبكِى ∴ بِأَدْمُعٍ مَا رأَيْنَ بَاسَا

---

(١) الثريا: ما نسميه (بالنجفة) ·

(٢) الدولاب : الساقية ·

ففى البيتين ثلاث استعارات مكنية صور فيهـا الـدولاب يحـن ويبكى، والروض يتسم، فبكاء الدولاب كناية عن صبه الماء، وحنينـه راجع إلى صوت دورانه، وابتسام الروض كناية عن تفـتح أزهـاره وبهجة نباته، وقد أكثر الأندلسيون فـى هـذا البـاب وبخاصـة فـى التشبيهات إكثارا عجيبا لم يوجد عند غيرهم ٠

وإليك أنماذج لحسن ذوقهم فى استعمال (المحسنات البديعية):

فمن (الجناس) قول (ابن عمار) :

أَلَا حَيِّ فى الغَرْبِ حَيًّا حِـلَالاَ ∴ أَنَا خُوَاجِمَا لَا وَحَازُوا جَمَـالَاَ!

فجانس بين حى وحيا وبين جمالا بكسر الجيم وجمالا بفتحها ٠

وقول (ابن الأبار) :

لم ندْرِ ما خَلَّدتْ عيناكِ فى خَلَدِى ∴ مِنَ الغرامِ،وما كَابَدْتُ فى كبدى

وقول (ابن زيدون) :

لا أكؤس الرَّاحِ تُبْدى من شمائِلِنا ∴ سِيما ارتياحٍ،ولا الأَوْتارُ تُسْلِينا

ومن (الطباق) قول (ابن خفاجة) فى وصف زهرة:

ومائسةٍ تُزْهَى وقد خلـعَ الحَيَـا ∴ عليها حُلًى حمرًا وَأَرديةً خُضْرا

يذوبُ لها رِيقُ الغمـائِمِ فضـةً ∴ ويجمُدُ فى أعطافها ذَهَبًا نَضْرَا

فطابق بين الحمر والخضر فى البيت الأول، وبين الفضة والذهب فى البيت الثانى ٠

وقول (ابن دراج) :

دَعِينى أَرِدْ ماءَ المفــاوِزِ آجِنــًا ∴ إلى حيثُ ماءُ المَكْرُمَاتِ نَمِيــرُ

فطابق بين الآجن وهو المتغير وبين النمير وهو الصافى.

ومن (التورية) قول (ابن جبير) [1]:

أَخِلاَّءُ هــذا الزمــانِ الخَئُــونِ ∴ توالتْ عليهم ضُروبُ (العِلَــلْ)

قضيْتُ (التعجــبَ) مــن بــابِهِمْ ∴ فصرتُ أُطالعُ بابَ (البَــدَلْ) !!

ومن (حسن التعليل) قول (ابن زهر) : فى فعل الخمر بشاربيها:

والخمرُ تعرفُ كيف تأخذُ ثأرَهــا ∴ إنى أَمَلْتُ إناءَهــا فَأَمَــالَنِى !!

وقول (ابن شهيد) يصف فرسا ــ وأجاد وأحسن ــ :

وَأَغَــرَّ قَــدْ لَــبِس الــدُّجَى ∴ بــُرْدًا، فَرَاقَــكَ وهْــوَ فَــاحِمْ!

يَحكِـــى بِغُرَّتـــِـهِ هِـــلاَ ∴ لَ الفِطْــر لاَحَ لِعَــيْنِ صَــائِمْ!

وكأنمـــا خـــاضَ الصَّـــبا ∴ حَ، فجاءَ مُبْــيَضَّ القَــوَائِمْ !!

٤- فى الموسيقا (أوزان الشعر وقوافيه):

استعمل الأندلسيون كل أوزان الشعر المأثورة عن شعراء العرب الأقدمين، والتى قننها (الخليل بن أحمد) وضبطها، وســماها بأســمائها المعروفة، كما استعملوا نظام (القافية) الموحدة فــى داخــل القصــيدة الشعرية، ولكنهم مالوا كثيرا إلى الأوزان الخفيفة والبحــور اللطيفــة

(١) يورى بمصطلحات من علم (النحو) .

(كالوافر) و(الرمل) و(السريع) و(المنسرح) و(المضارع) و(المجتث)، لرقتها ومناسبتها لأغراضهم الغالبة (كالغزل) و(الخمريات) و(الوصف) لاسيما (وصف جمال الطبيعة) من رياض وأزهار، وجداول وأنهار وما إلى ذلك. ولكنهم ابتكروا وجددوا فى (الموسيقا الشعرية) باختراعهم فنا جديدا هو (فن الموشحات) الذى رتبوا فيه تفعيلات بعض البحور ترتيبا خاصا، ونوعوا فى القافية فى داخل القصيدة الموشحة تنويعا طريفا، فأضافوا بذلك إلى موسيقا الشعر العربى إضافة قيمة، وإليك كلمة عن هذا الفن.

الفصل السادس

التوشيح والموشحات

أ ـ تعريف الموشح[1]:

[مقطوعة أو قصيدة شعرية، رقيقة اللفظ، جميلة الصياغة، خفيفة الوزن، سهلة المعنى ، رشيقة التقاسيم ، تتنوع فيها (التفعيلات) وتتعدد فيها (القوافى)، على نسق خاص يختاره الشاعر ويلتزمه فى كل الموشح للنغم الموسيقى فيه المقام الأول، ليكون صالحا للغناء به، وأكثر استعماله فى الغزل والأوصاف والخمريات، ثم فى الأمداح]٠

ب ـ دواعى اختراعه :

يرى العلامة (ابن خلدون) [2] أن أهل الأندلس "لما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه (بالموشح)، ينظمونه أسماطا أسماطا، وأغصانا أغصانا ... وتجاروا فى ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس جملة، الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه .." الخ٠

فالرغبة فى زيادة التنميق، والبحث عن الجديد هما السبب عند (ابن خلدون) فى اختراع الأندلسيين للموشحات، واستظراف الناس إياه هو السبب فى رواجه وانتشاره ٠

---

(١) وضعنا هذا التعريف مستخلصين عناصره من خصائص هذا الفن٠
(٢) راجع كتاب (المقدمة) لابن خلدون، وهى مقدمة نفيسة لتاريخه الكبير ولكنها جاءت فى كتاب مستقل حافل بالبحوث القيمة والعلوم النافعة٠

ويرى بعض الباحثين أن السبب الحقيقى لاختراعه هـو إشـباع حاجة (الغناء) الذى أقبل عليه الأندلسيون إقبالا منقطع النظيـر وذلـك حين وجدوا أن أوزان الشعر القديمة قد ضاقت عـن فنونـه عنـدهم فاخترعوا الموشحات ليوسعوا بها دائرة الأوزان ، وينطلقوا بها إلى ما شاءوا من الألحان٠

وفى رأينا أن السببين قائمان ولا تعارض بينهما، فقد كـان مـن صفات الأندلسيين التطلع إلى الجديد، كما كان من عـاداتهم الشـغف بالغناء والتفنن فى طرائقه ومناحيه٠

وأكثر ما استعمل الأندلسيون الموشحات فيه "الغزل" و"الخمريات" و"الوصف" ثم "الأمداح"، كما نوهنا بذلك آنفا٠

جـ- أشهر رجاله عندهم:

يكاد يجمع الباحثون على أن أول من صنع (التوشح) بالأنـدلس، الشاعر (مقدم بن معافى القبرى) [1] وهو من شعراء (عبدالله بن محمد) سابع الأمراء الأمويين فى الأندلس (٢٧٥ ـــ ٣٠٠)هـ ٠

وعنه تلقاه (أحمد بن عبد ربه) صاحب كتـاب (العقـد الفريـد) المتوفى عام ٣٢٨هـ ، لكن نبغ فيه من بعدهما من الشعراء من تفوق عليهما وغطى على موشـحاتهما، وفـى مقـدمتهم (عبـادة القـزاز)

---

(١) هكذا ورد اسمه فى (المقدمة لابن خلدون) وورد أيضا فيها هكذا: (مقدم بن معافر الفريرى) أما فى (الذخيرة لابن بسام) فورد هكذا: (محمد بـن حمـود القبرى)، وراجع: (فى الأدب الأندلسى) لجودت الركـابى ط دار المعـارف بمصر ١٩٨٠م٠

و(الأعمى التطيلى) (*) ، و(ابن بقى)، (أبوبكر بن باجة) وفى صدر دولة الموحدين اشتهر بالتوشيح (ابن شرف) و(ابن بهردوس) و(ابن مؤهل)، و(أبوإسحاق الروينى)، و(ابن زهير) ومن أواخر ونوابغ فن الموشحات فى الأندلس (ابن سهل الإسرائيلى) المتوفى عام ٦٤٩هـ ، و(لسان الدين بن الخطيب) المتوفى عام ٧٧٦هـ.

د - بعض طرائقه وفنونه وأنماذج منه:

أظهر ما فى الموشحات أن الأشطر فى الموشحة كلها مقفاة، ثم منوعة على نظام خاص - كأن يجعل الشاعر قافية البيت الأول بشطريه تتكرر بعد كل (أربعة أشطر) كما فى موشحة الشاعر الوزير الفيلسوف الحكيم (ابن باجة) (١) فى مدح صديقه (أبىبكر بن تيفلويت) ملك (سرقسطة)، وهى فى غاية الرقة والجمال(٢)، ومنها:

جَرِّرِ الذيلَ أَيما جَرِّ ∴ وَصِلِ الشكرَ منكَ بالشكرِ

خَضِّبِ الزَّنْدَ منكَ باللَّهبِ

مِن لجينٍ قد حُفَّ بالذهبِ

تحتَ سِلكٍ كجوْهَرِ الحَبَبِ

مَعَ أَحْوَى أُعَيْذِبِ الشَّنَبِ

أُودِعَتْ كَفُّهُ مِنَ السِّحْرِ ∴ جَامِدَ الْمَا ، وذائبَ التِّبْرِ !

(*) نسبة إلى (تطيلة) بلدة فى الشمال الأوسط من الأندلس، وانظر الخريطة التاريخية فى أول الكتاب .

(١) هو أبوبكر محمد بن الحسين بن باجة، وانظر المغرب ٢/ ١١٩ .

(٢) وقد جمع فيها بين الغزل والوصف والخمر والمدح فأجاد وأبدع أيما إبداع.

هاكَ نورُ الصباحِ قد لاحَا !
ونسيمُ الرياضِ قد فاحَا !
فتأهبْ وشعشعِ الرَّاحَا !
لا تَقِدْفى الظِّلامِ مصباحا !

حينَ تنهلُّ أدمعُ القَطْرِ .·. فقل الرَّوْضُ ناسمٌ عِطْرِى

فَهُمُومٌ راحتْ بأفراح
فى مساءٍ وعند إصباح
والغَوادى تجودُ بالرَّاح
وهى تسْقِى الرُّبَا بأقداح

وَقُدُودُ الأغصانِ بالسُّكْرِ .·. تَنْثَنِى فى غَلائلٍ خُضْرِ

وهى طويلة على هذا النسق البديع، وقد ختمها بقوله:

عقَدَ اللهُ رايةَ النصرِ .·. لأميرِ العُلاَ (أَبِى بَكْرِ) (١)

وبعض الوشاحين يجعل فى البيت الواحد (أربع قواف)، ثنتان منهما موحدتان وهما الأولى والرابعة، ويلتزم ذلك(*) كما فى موشحة

(١) وقد روى مؤرخو الأدب أن الشاعر دفع بالموشحة إلى مغنية فغنتها فى مجلس الأمير فلما أتت على آخرها صاح الأمير (واطرباه) وشق ثيابه! وقال للشاعر: ما أحسن ما بدأت وما ختمت! وحلف بأغلظ الأيمان لا يمشى الشاعر إلى بيته إلا على الذهب ! فخاف الحكيم سوء العاقبة واحتال بأن جعل فى نعله (ذهبا) ومشى عليه وراجع مقدمة ابن خلدون ، ص٥٨٤ .

(*) كما يلتزم تسكين آخر القافية الأولى، لتشاكل تسكين آخر القافية الرابعة.

(عبادة القزاز) شاعر (المعتصم بن صمادح) صاحب (المرية) وأحـد ملوك الطوائف، ومنها فى (الغزل) :

بـدْرٌتمْ، شـمسُ ضُـحا .:. غُصْـنُ نَقَـا ، مِسْـكُ شَـمّْ

مَـا أتَـمّْ ، مَـا أوضـحا .:. مـا أوْرقـا ، مـا أنَـمّْ !

لاَ جَـرَمْ ، مَـنْ لَمَحَـا .:. قَـدْ عَشِـقا ، قَـدْ حُـرِمْ !

وبعضهم يجعل فى البيت (ثلاث قواف فقط) ثنتان منهما متفقتـان وهما الأولى والثانية كقول (أبىالحسن سهل بن مالك) فى موشحة لـه فى (الوصف) :

كُحْلُ الدُّجَى يجرِى،مِنْ مُقْلةِ الفَجْرِ،على الصـباحْ

وَمِعْصَمُ النهرِ، فى حللٍ خضرٍ، مِنَ البطاحْ...الـخ

وبعضهم يجعل موشحته مؤلفة من وحدات، كل وحدة تتكون من (خمسة أبيات) أما البيتان الأولان فافتتاح ولا يحسـبان مـن الخمسـة يعقبهما ثلاثة أبيات ثم يأتى بيتان على نسـق الافتتـاح فـى التقفيـة، ويجعلان كالختام للأبيات الثلاثة التى تقدمتهما ــ لأنهما مكملان لهـا فى المعنى ــ ويتكرر ذلك فى الموشح حتى آخره، أما نظام التقفية فى الموشح، فإن بيتى الصدر والخواتيم:

لكل من الشطرة الأولى فيهما قافية موحدة، ولكل مـن الشـطرة الثانية قافية موحدة كذلك لكنها غير الأولى.

أما الأبيات الثلاثة التالية للصدر والمتلوة بالخواتيم، فجارية على نفس النسق، للثلاثة أشطر الأولى قافيتها، وللثلاثة أشطر الثانية قافيتها المغايرة — مع التغاير كذلك بين الأبيات الثلاثيات فى قوافيها. ومما يوضح كل ذلك التطبيق على موشحتين من أروع الموشحات الأندلسية على الإطلاق نعرض عليك جزءا من كل منهما ونختم بها الكلام على الموشحات ، وهما موشحة (ابن سهل الإشبيلى) وموشحة (ابن الخطيب) التى عارضتها ، وهما من (بحر الرمل) وللموشحات أشكال أخرى لا نطيل عليك بذكرها، ونحيلك عليها إن أردت الاستزادة فى الكتب الكبرى مثل (نفح الطيب) و(المغرب فى حلى المغرب) و(الذخيرة)، وهذا ما وعدناك به من مقتطفات من موشحتى (ابن سهل) و(ابن الخطيب) :

١ - يقول (ابن سهل الإشبيلى) فى موشحته الغزلية:

هَلْ دَرَى ظبىُ الحِمَى أَنْ قد حَمَى ∴ قلبَ صَبٍّ حَلَّـهُ عَـنْ مَكْـنِس

فهْو فـى حَـرٍّ وخَفْـقٍ مِثلمـا ∴ لعبتْ ريـحُ الصَّـبَا بـالقَبَسِ

* * *

يا بدورًا أطلعـتْ يـوم النَّـوَى ∴ غُرَرًا تسلكُ بى نَهْـجَ الغَـرَرْ

ما لقلبى فى الهوى ذنبٌ سِـوَى ∴ منكم الحُسْنُ ومِن عينى النظرْ!

أجتنى اللـذاتِ مكلـومَ الجَـوَى ∴ والتذاذى مِنْ حبيبـى بـالْفِكَرْ

* * *

كلمَــا أشْــكُوهُ وجْــدِى بسَــمَا .·. كالرُّبَــا للعــارِضِ المنْــبجِس
إذْ يقــيمُ القَطْــرُ فيهــا مَأْتمَــا .·. وهى مِن بهجتِها فــى عُـرُسِ

* * *

كلَّمَــا أشــكو إليــه حَرَقِــى .·. غَــادرتْنى مُقْلتــاهُ دَنِفَــا
تَركــتْ ألحاظــه فــى رَمَقِــى .·. أثَرَ النملِ على صُـمِّ الصَّــفَا
وأنَــا أشــكُرُهُ فيمــا بَقِــى .·. لستُ ألْحَاه عَلَــى مَــا أتْلَفَــا

* * *

فَهْوَ عِنــدى عَــادِلٌ إنْ ظَلمَــا .·. وعذو لِــى نُطقُــهُ كَــالخَرَسِ
أيهَّــا الآخِــذُ قلْبِــى مَغْنَمَــا .·. اِجْعَلِ الوَصْلَ مكــانَ الخُمُــسِ

ويقول (لسان الدين بن الخطيـب) واصــفا ومتغــزلا ومادحــا، ومعارضا[1] موشحة (ابن سهل) السابقة:

جَادَكَ الغَيْــثُ إذَا الغَيْــثُ هَمَــى .·. يا زمــانَ الوصْــلِ بالأنْــدلسِ
لــمْ يكــنْ وصْــلُكَ إلا حُلمَــا .·. فِى الكَرَى أوْ خِلسَةَ المُخْــتلِسِ

* * *

إذْ يقودُ الــدَّهرُ أشْــتاتَ المُنَــى .·. يَنقُلُ الخَطْوَ على مــا يَرْسُــمُ
زُمَــرًا بــينَ فُــرَادَى وَثُنَــا .·. مِثْلما يدعُو الوفــودَ الموْسِــمُ

---

(١) وعارضهما مؤلف هذا الكتاب بموشح غزلــى لإعجابــه الشــديد بهــذين الموشحين راجع ديوانه (الومضات) صـــ١٦٦ ط دار الأرقم بالزقازيق ســنة ١٤١٤هـــ ـــ ١٩٩٣م.

والْحيا قدْ جَلَّـلَ الـرَّوْضَ سَـنَا .:. فثُغُـورُ الزَّهْـرِ فيهـا تَبْسُـمُ

* * *

وروى(النعمانُ) عن(ماءِ السَّمَا) .:. كيفَ يروى (مالكٌ) عنْ (أنَسِ)
فكسـاهُ الحسْـنُ ثوبـًا مُعْلَمًـا .:. يَزْدَهِي مِنْـهُ بِـأبْهَى مَجْلِـسِ

* * *

ويقول فى آخرها منوها بذكر السلطان (الرِّضَى) أحد ملوك (بنى الأحمر) :

سَلِّمِى يا نفسُ فى حكمِ القَضَـا .:. واعْبُرِى الوقتَ بِرُجْعَى وَمَـآبْ
واتْركى ذِكْرَ زمانٍ قـد مضَـى .:. بينَ عُتْبَى قد تقضَّـتْ وَمَتَـابْ
وَاصْرِفِى القولَ إلى المَوْلَى(الرِّضَى) .:. مُلْهَمِ التوفيـقِ فِـى أُم الكِتَـابْ

* * *

الكـريمِ المُنْتَهَـى والمُنْتَمَـى .:. أَسَدِ السَّرْجِ، وبَـدْرِ المَجْلِـسِ
يَنـزلُ النصـرُ عليـهِ مثْلمـا .:. ينزلُ الوحْىُ بِرُوحِ القُـدُسِ ..

* * *

الباب الرابع

النثر فى العصور الأندلسية

(**تمهيد**) :

إذا جاز لنا أن نصف الأدب بأنه (عملة) تتـداولها المجتمعـات المتحضرة فى شتى العصور، (فالشعر) أحد وجهـى هـذه (العملـة) و(النثر) هو الوجه الآخر.

ومنذ دخلت اللغة العربية أرض الأندلس، راجـت هـذه العملـة القيمة أيما رواج .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الشعر وهو ألمع الوجهين، ولعلنا بلغنـا فيه بعض ما يحب القارئ الكريم، وقد آن لنا أن نخص (النثر) بحديث – إن يكن موجزا – فإننا نرجو أن يكون فيه بلاغ إن شاء الله تعالى.

والنثر إما (خطابة) تصدر عن اللسان بداهـة فـى المناسـبات المختلفة دينية كانت أو سياسية أو اجتماعية، وإما (كتابة) يسطرها القلم عن روية لدواع متعددة ستأتى الإشارة إليها .

الفصل الأول

النثر فى العصر الأول (عصر الولاة)

١- الخطابة :

وقد كانت (دواعى الخطابة) قائمة فـــى أول العصـــور العربيـــة الأندلسية فى صورة تحميس الجيوش على الجهاد وترغيب الجنود فى الفتح وحضهم على الثبات فى الحرب وعلى التضحية بالنفس ابتغـــاء مرضاة الله .

٢- الكتابة :

كما كانت (دواعى الكتابة) موجودة كذلك مـــن تحريـــر العهـــود للمعاهدين، والرسائل للخلفاء وأولى الأمر، ببشريات النصـــر وأنبـــاء الفتوح وطلب المشورة والمدد، ثم كانت الخطابة أداة زعماء العشـــائر المتناحرة، والعصبيات الناجمة فى عهد الولاة تعبيـــرا عـــن وجهـــات النظر، وتأييدا للأفكار والمبادئ والآراء، وردا على الخصوم ونقضـــا لمذاهبهم كما كانت الكتابة أداة الاتصال بين هذه الفرق فى مناســـبات التحدى والتهديد ، وفى محاولات التصالح ولم الشعث وجمع الكلمـــة، وإخماد الفتنة.

ولما كانت أمور الحكم فى ولاية (الأنـــدلس) التابعـــة (للخلافـــة الأموية) فى (دمشق)، والتى انتقلت تبعيتها بعد قليل(للخلافة العباسية).

لما كانت أمور هذه الولاية القاصية لم تستقر ولم تعرف الهـــدوء إلا قليلا فى مدة (حكم الولاة) وهى مدة لم تتعد (الستة والأربعين عاما)

ــ فإنه لم يصلنا من النتاج الأدبى بعامة والنثرى بخاصة ــ فى عهـد الولاة إلا القليل، نظرا لما ساد أغلبها من القلق وعدم الاستقرار، ومـع الفتن والاضطرابات تضيع الآثار الأدبية، فضلا عن الأسباب الأخرى التى جدت بعد ذلك. ومن أوائل هذا القليل الذى وصـل إلينـا خطبـة (طارق بن زياد) التى ألقاها على جنوده بعد عبوره بالجيش الإسلامى إلى (عدوة الأندلس) قبيل المعركة الفاصلة بين جيش المسلمين وجيش طاغية الإسبان (لذريق)، وكان موقف المسلمين خطيرا لقلـة عـددهم وعددهم بالقياس لجيش أعدائهم الجرار وعـدده الموفـورة وإمكاناتـه الهائلة، فكان لابد من شىء يلهب الشعور، ويؤجج الحماس فى نفـوس المسلمين ليقدموا على هذه المخاطرة الرهيبة، فكانت خطبة (طـارق) هى ذلك الروح السحرى الذى سرى فى صـفوف المـؤمنين فشـحن نفوسهم بالإقدام، وملأ قلوبهم بالثقة فأقبلوا على القتال غيـر هيـابين، وحققوا معجزة النصر المبين .

وهذه هى الخطبة[١]:

"أيها الناس : أين المفر؟! البحر من ورائكـم والعـدو أمـامكم!، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر !! واعلموا أنكم فى هذه الجزيـرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا مـا تستخلصونه من أيدى عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم

---

(١) راجع (نفح الطيب) ٢/ ٥٠ ط دار المأمون، و(وفيات الأعيان) لابن خلكان.

تتجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، [...](*) ولكننى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، وإن هلكت قبل وصولى إليه، فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون، والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين" •

هذا هو النص الذى ارتضيناه من الخطبة المنسوبة (لطارق) والمدونة فى المراجع(١) وقد حذفنا من ذلك المدون جزءا من الوسط تأكد لدينا أنه أضيف إلى الخطبة فى عصور متأخرة، وسنذكر أسباب هذا التأكد بإذن الله •

وهو هو الجزء المستبعد(٢):

"......ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبرأ منها بنفسى، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه

(*) هنا موضع زيادة فى النص، سنشير إليه قريبا إن شاء الله تعالى•
(١) انظر المرجعين السابقين •
(٢) لما كان هذا الجزء فى الوسط اقتضى ذلك منا (تصرفا يسيرا) فى ربط أول الخطبة بآخرها •

الألذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى، فما حظكم فيه بـأوفر مـن حظى، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات[1] فى الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان[2]، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان، وقد انتخبكم (الوليد بـن عبدالملك) أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملـوك هـذه الجزيرة أصهارا وأختانا[3]، ثقة منه بارتياحكم للطعـان، واسـتماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله علـى إعـلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم"٠

أما أسباب تأكدنا من زيادة هذا الجـزء وإضـافته إلـى خطبـة (طارق) بعد ذلك دون أن يكون منها فهى:

١ – أنه مصوغ بأسلوب سيطرت عليه (المحسنات البديعية) المتكلفة (كالسجع) فى تسع جمل و(كالمقابلة) بين ثلاثة معان وأضدادها فى جملتين ، ولا كذلك أول الخطبة وآخرهـا الجاريـان علـى الأسلوب الفطرى المرسل البعيد عن المحسنات، والمعقـول أن تكون الخطبة على نسق واحد فـى أسـلوبها لا علـى نسـقين متغايرين، وهذه الصنعة البديعية الظاهرة التكلـف لا يتصـور

(١) الرافلات: المتبخترات فى النعيم ٠
(٢) العقيان: الذهب الخالص ٠
(٣) الصهر: القريب بالزواج وكذلك الختن ٠

صدورها من (طارق) إذ كان أدب عصره الأموى خاليا منهـا وإنما عرفت الصنعة وراجت بعد ذلك بقرون.

٢ - أن الخطبة لو انضم إليها الجزء المستبعد تكون طويلة، والموقف آنذاك ليس موقف تطويل، بل هو موقف إيجاز وتركيز، ـ مـع ملاحظة أن هناك جزءا من **الخطبة** الأصلية لم تذكره المراجـع وإنما أشارت إليه، ذلكم هو **المقدمة** التى يقول عنها صاحب نفح الطيب: إن (طارقا) قام فى أصحابه [فحمد الله، وأثنى عليه بمـا هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم]، ثم قال..."[١].

٣ - أن فى مضمون هذا الجزء ترغيبا من طارق لجنوده فى حيـازة نساء جزيرة الأندلس لجمالهن وزينتهن ... الخ وهذا مناف لمـا كان قادة المسلمين يرغبون فيه جنودهم من طلـب مرضـاة الله سواء استشهدوا أم انتصروا.

٤ - أن فى هذا الجزء خطأ فقهيا فى وعد القائد جنـوده فـى حالـة انتصارهم أن تكون الغنائم خالصة لهم من دون الخليفـة ومـن دون المؤمنين سواهم، وهذا خطأ فى الأحكام لا يقع فيـه مثـل (طارق) ولا يملكه، لأن حق بيت مال المسـلمين فـى (خمـس الغنيمة) أمر ثابت مقرر بالكتاب والسنة[٢].

---

(١) وبإضافة هذا الجزء تزداد الخطبة طولا.
(٢) راجع الآية الكريمة رقم ٤١ من سورة (الأنفال).

٥ - أن فى هذا الجزء تنويها من (طارق) بالخليفة (الوليد) فقط دون الإشارة إلى أستاذ طارق وقائده العام الذى ولاه قيادة الحملة ألا وهو (موسى بن نصير)، ومن المستبعد – لو كان النص صحيحا – أن يغفله بعد ذكر (الوليد) ولا مصلحة (لطارق) فى هذا الإغفال، ولكن هناك من الباحثين من ينفى صدور هذه الخطبة برمتها عن (طارق) لأسباب لخصناها فى الباب الثالث من هذه الدراسة عند الحديث عن الشعر المنسوب لطارق – ونحن نخالفهم فى ذلك ، ونثبت الخطبة له، بعد استبعاد الجزء الذى أقمنا الأدلة على أنه دخيل – ويأتى إثباتنا استنادا إلى البراهين التى فندنا بها شبهات النافين لشعره فى الموضع نفسه، فراجعه ثمة[1] وبالله التوفيق٠

ومن القليل الذى وصلنا من نثر عهد الولاة فى الكتابة : (العهد) الذى كتبه الأمير (عبدالعزيز بن موسى بن نصير) والى الأندلس بعد أبيه موسى للأمير (تدمير) حاكم إقليم (مرسية) الإسبانى الذى كان ممن وقفوا فى وجه الفتح العربى، ثم آثر الصلح والدخول فى طاعة المسلمين[2]، وهذا هو نص (العهد):

"بسم الله الرحمن الرحيم، من (عبدالعزيز) إلى (تدمير)، أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته، ألا ينزع عن ملكه، ولا أحد من

---

(١) راجع صفحة ٨٩، ٩٠ من هذا الكتاب ٠

(٢) راجع المجمل فى تاريخ الأندلس لعبدالحميد العبادى ص٥٢ ٠

النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون، ولا يسبون[١]، هم وأولادهم ونساؤهم ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ما تعبد ونصح، وأنه لا يؤوى لنا عدوا، ولا يخون لنا أمنا، ولا يكتم خبرا علمه..." [٢]
ومنه رسالة (يوسف بن عبدالرحمن الفهرى) آخر الولاة[*] ، والذى دخل فى عهده إلى الأندلس الأمير الأموى الفار من (المشرق) (عبدالرحمن الداخل) عندما علم (يوسف) بدخول (عبدالرحمن) ومطامعه، وسعيه فى جمع الناس حوله: كتب إليه يتألفه محاولا إخماد حركته وهى فى مهدها، و(من هذه الرسالة) [٣].

"أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل (المنكب)، وتأبش من تأبش[٤] إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر[٥] والغدر، ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه عزوجل نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا[٦] ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفا وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط. فإن كنت تريد المال فأنا أولى بك ممن لجأت إليه، أكنفك[٧]

---

(١) من (السبى) وهو الرق والعبودية.
(٢) وفى هذا (العهد تتبين سماحة الإسلام وعدالته، وحسن تعامل القادة المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة، حيث لا ظلم ولا إكراه ولا استعباد ، على عكس ما كان من أعداء المسلمين معهم بعد ذلك !!
(*) وكان آنذاك تابعا للخلافة العباسية .
(٣) راجع الدكتور (أحمد هيكل) فى (الأدب الأندلسى) ص٦٦ .
(٤) تأبش: انضم .
(٥) الختر: الغدر .
(٦) غمصوا : أنكروا ولم يشكروا.
(٧) أكنفك: أحيطك بالأمان.

وأصل رحمك، وانزل معى إن أردت، أو بحيث تريد، ثم لك عهـد الله وذمته بى ألا أغدرك، ولا أمكن منك ابن عمى صاحب (إفريقيـة) ولا غيره ..." .

و(العهد) و(الرسالة) السابقان، (أسلوبهما) قوى مرسل، وفيه قوة وفصاحة مرجعهما الطبع السليم البرئ من التكلف، (والمعنى) فى كـل منهما واضح قريب، لا غموض فيه ولا التواء وهما يمثلان عصرهما أفضل تمثيل ولما جاء عصر (بنى أمية) فى الأندلس كـان مؤسسـة (عبدالرحمن الداخل) من الخطباء البلغاء والكتاب المجيدين ــ كما كان شاعرا ــ لكنه ينتمى إلى (عصر الولاة) فى أسلوبه فى رأينا.

الفصل الثانى

النثر بعد عهد الولاة

بيد أن خلفاء عبدالرحمن طوروا (الإمارة) إلى (خلافة)، وأقاموا نهضة باهرة، وحضارة زاهرة، وكان الأندلس فى عهدهم ـــ الذى امتد لزهاء ثلاثة قرونـــ موحدا قويا عزيزا٠

١- (**الخطابة**) :

وقد تطورت الخطابة والكتابة فى عهودهم فى ظـــل المتغيـــرات التى حدثت ١ – أما (الخطابة) فضـــعفت شـــيئا فشـــيئا لأن القـــوم (تحضروا)، فزالت عنهم صفة (البداوة) التى كانت هى النبع الفيـــاض الذى يمد الخطابة بالقوة والسطوة، وقل الاقتدار على (الارتجـــال) [(١)]، وأصبحت الخطابة مقصورة على المناسبات الدينية والسياسية، يقوم بها المتمرسون من الفقهاء والزعماء ، وغالبا ما تكتب الخطـــب أولا ثـــم تحفظ وتلقى، ومن أشهر خطبائهم المجيدين [الأمـــراء]: (هشـــام بـــن عبدالرحمن الداخل) وابنه (الحكم بن هشام) المعـــروف (بالربضـــى)، و(عبدالرحمن بن الحكم) وهـــو عبـــدالرحمن الأوســـط ، [والخليفـــة] (عبدالرحمن الثالث) المعروف (بالناصـــر) وابنـــه الخليفـــة (الحكـــم المستنصر) (ومن الوزراء) (المنصور بن أبىعامر) ومـــن (القضـــاة والعلماء): الفقيه (يحيى بن يحيى الليثى)، والقاضى (منذر بـــن ســـعيد البلوطى)، والشيخ (محمد بن الوليد الطرطوشى)، و(ابن أبىالخصـــال

---

(١) ارتجال الخطبة: الإتيان بها دون إعداد٠

الغافقى) و(ابن الحاج البلقينى)، و(لسان الدين بن الخطيب)، و(أبوعبدالله بن مرزوق)، و(أبوعبدالله اللوشى)، و(ابن بلبش العبدرى) و(ابن زمرك الغرناطى).

٢- (الكتابة):

وأما (الكتابة) فقد نهضت بالتدريج حتى وصلت إلى قمة سامقة ساوت بها الشعر، ووقفت معه موقف الند للند، والنظير للنظير، ولقد أعان (الكتابة الفنية) على النهوض، ظهور الشخصية الأدبية الأندلسية التى استمدت مقوماتها من ثقافة (المشرق) الواردة على الأندلس بانتظام، من (كتب) يحرصون على جلبها ودراستها، و(علماء وأدباء)[١] يقدمون على الأندلس ويقيمون بها، و(رحلات) يقوم بها الأندلسيون إلى (المشرق) فى موسم الحج وغيره حيث يلتقون بأعلام المشرق فى كل علم وفن، ويتلقون عنهم[٢]، ويرجعون إلى الأندلس وجعباتهم مملوءة بألوان الثقافة والمعرفة التى كان يعج بها المشرق آنذاك[٣].

(أنواع الكتابة):

كما نهضت الكتابة وتعددت (أنواعها وفنونها) من كتابة (سياسية) و(إخوانية) جدية وهزلية، ومن (كتابة وصفية) و(تأليفية) و(مناظرات)

---

(١) كأبى على القالى صاحب كتاب (الأمالى) المشهور.

(٢) مثل (زياد اللخمى) و(يحيى بن يحيى الليثى) اللذين رحلا إلى الإمام (مالك) فى الحجاز وأخذا عنه الفقه.

(٣) كان (المشرق) فى عصره الذهبى فى الحضارة والعلوم والآداب وهو العصر العباسى.

خيالية، و(قصص) اجتماعية وفكاهية، كما ساعد على نهضة الكتابة وازدهارها فى العصر الأموى وما تلاه من العصور لاسيما (عصر ملوك الطوائف) و(عصر بنى الأحمر) نمو الحضارة وما صار للأندلسيين من أبهة الملك، واتساع العمران، وإبداعات الفنون، ومظاهر الترف والنعيم، مما عمل على نضج ملكة الكتابة التى تطلعت إلى وصف ذلك كله والحديث عنه وخدمة مقتضياته ، بأسلوب يماثله فى الجمال والرقة والإبداع ٠

تطور أسلوب الكتابة:

ويمكننا وصف أسلوب الكتابة وتلخيص التطور الذى حدث فيه فى تلك العصور بأنه كان فى أول الأمر متينا جزلا خاليا من التكلف بعيدا عن الصنعة ــ كما ذكرنا من قبل ــ كما كان خاليا من المبالغات، وألفاظ التعظيم والتفخيم والملق ، (مرسلا غير مسجوع) إلا ما جاء عفو الخاطر٠

ثم تطور الأسلوب بعد ذلك إلى (تقليد المشارقة) فى أساليبهم التى دخلتها الصنعة على يد (ابن العميد) و(الخوارزمى) و(بديع الزمان الهمذانى) وأضرابهم، وشاعت هناك حتى غلبت على الكتابة، وصارت سمة مميزة لها،وأعجبت هذه الصنعة أدباء الأندلس وكتابه[1]، فأدخلوها فى كتاباتهم والتزموها فى إنشائهم، واحتفلوا بأنواع البديع كلها لاسيما (السجع) الذى دخل عندهم فى كل شىء ، ولم يخل منه أسلوب التأليف

---

(١) لاسيما وهى متسمة بالاعتدال والتوسط وعدم الإيغال فى استعمال المحسنات، مع قاعدة من القوة الفنية والتمكن الأدبى٠

مهما عظم حجم الكتاب ـــ بيد أن المشارقة قد تحولوا ـــ بعد قرنين من الزمان تقريبا ـــ عن طريقة (ابن العميد) السهلة القريبة من الطبع إلى طريقة (القاضى الفاضل) الصعبة المغرقة فى الصنعة، وغالوا فى التمسك بها، فرذلت وسمجت أساليبهم ـــ لكن حسن ذوق (الأندلسيين) وسلامة فطرهم وجمال طباعهم أداهم إلى مجانبة طريقة (القاضى الفاضل) ومن هنا بقى سجع كتابهم سهلا مقبولا، وعذبا مألوفا، حتى لكأنه صادر عن طباعهم غير متكلف ولا متعمد.

أشهر الكتاب :

ويطول بنا القول،ويضيق المقام هنا لو حاولنا حصر الكتاب الذين تتابعوا فى تلك العصور الأدبية الزاهرة، واستمرت إبداعاتهم لأكثر من (ستة قرون)، ويكفى لتقريب الأمور أن ننقل لك ما ذكره مؤرخو الأدب من "أن كل شاعر أندلسى كان كاتبا وكل كاتب كان شاعرا"!!

فلنجتزئ من هذا العدد الهائل من الكتاب بذكر بعض المشهورين، وأفراد من النابغين مع عرض شيء من نتاجهم، وما دبجته يراعاتهم[١] وجادت به قرائحهم.

١- ابن زيدون:

عرفنا (بابن زيدون) عند الكلام على الشعر والشعراء، فراجع هذا التعريف هناك[٢] ونركز هنا على منزلته فى (النثر)، وآثاره فى (الكتابة).

---

(١) أقلامهم .
(٢) راجع ص ١١٥من هذا الكتاب.

لقد كان (ابن زيدون) واسع الثقافة مشتعل الذكاء قــوى الــذاكرة كثير القراءة والحفظ، وقد أعانته هذه الصفات على أن يكــون كاتبــا مجيدا منشئا متمكنا مبدعا ولنبوغه فى فنون النثر ــ كنبوغه فى الشعر ــ تولى الكتابة فى (قرطبة) (لبنىجهور) وفى (غرناطة) (لبنى عبــاد) فهو من أعظم كتاب الدواوين فقد جرى فى أسلوبه على أسلوب (ابــن العميد) فى (المشرق) فقاربه وساماه، وإذا كان النقاد قد ألحقــواه فــى الشعر (بالبحترى) فإنه فى النثر جدير بأن يلحق (بابن العميــد)، وأن يلقب (بابن عميد الأندلس)، ونثره كثير ولكن أشهره رسالتاه الخالدتان (الجدية) و(الهزلية) وهما من أنفس الآثار الأدبية النثريــة فــى الأدب العربى كله، أما (الرسالة الجدية) فقد كتبها فى الســجن وموضــوعها (الاستعطاف)، وهذه الرسالة موجهة إلى (محمد بــن جهــور) حــاكم قرطبة الذى سجنه، لكى يطلق سراحه.

وقد جمع (ابن زيدون) فى هذه الرسالة بــين المــدح والتقــرب والاعتذار والاستعطاف، والفخر والامتنان، ولوم الأعــداء والصــبر والتجلد فى أسلوب قوى بليــغ مشــرق متناســق، ممــزوج بروائــع الاستشهاد من الحكم والأمثال وأشعار الأقدمين، الواقعة موقعها الثابتة فى مواضعها، فأجاد أيما إجادة وبلغ القمــة والغايــة فــى الإحســان والإبداع، وإليك جزءا من هذه الرسالة النفيسة:

" يا مولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه، واعتــدادى به، وامتدادى منه، ومن أبقاه الله تعالى ماضى حد العزم، وارى زنــد

الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتنى – أعزك الله – لباس نعمائك – وعطلتنى من حلى إيناسك، وأظمأتنى إلى برود إسعافك، ونفضت بى كف حياطتك، وغضضت عنى طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستنادى إليك، فلا غرو[1]! فقد يغص [2] بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمنى فى أمنيته، والحين قد يسبق جهد الحريص[3]:

كُلُّ المصائبِ قدْ تمرُّ على الفَتَى ∴ وتهونُ غيرَ شَمَاتةِ الأعْداءِ!!

ومنها :

هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تقشع ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سببه أو تأخر – غير ضنين – غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحاب مشيا أحفلها، وأنفع الحيا ما صادف جدبا، وألذ الشراب ما أصاب غليلا – وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك؟ والتحامل الذى لم يغلبه احتمالك؟! ...." الخ.

وأسلوب الرسالة – كما ترى – غلب عليه الترسل ، وقل فيه السجع، وكثر فيه الاستشهاد بكلام الغير، وفيه استقصاء للمعانى،

(١) لا غرو : لا عجب .
(٢) غص بالماء : شرق به .
(٣) الحين : الهلاك .

وإطناب من غير إملال، مع حلاوة نسج، وبشاشة لفظ ، وطلاوة منطق، وبهجة مقطع.

وأما الرسالة (الهزلية) فقد كتبها (ابن زيدون) على لسان الأميرة (ولادة) بنت الخليفة (المستكفى بالله) من أواخر خلفاء (بنى أمية الأندلسيين)، والرسالة موجهة إلى الوزير (ابن عبدوس) منافس (ابن زيدون) فى التقرب إلى الأميرة (ولادة)ومحاولة الفوز بزواجها، عندما أرسل إليها محاولا كسب مودتها وموضوعها، (هجاء ابن عبدوس) والتهكم به، وتيئيسه من مودة. الأميرة (ولادة بنت المستكفى) ويبدو أن هذه الأميرة، وقد كانت على صلة مودة قوية(بابن زيدون) ـ قد كلفته بكتابة هذه الرسالة[*] فما أسرع ما استجاب، إرضاء لها، ونكاية فى خصمه اللدود، فجاءت أعجوبة فى موضوعها، وآية من آيات البلاغة فى بابها[1].

وهذه قطعة منها: يقول فى أولها:

"أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر فى ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب، فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب، وإنك راسلتنى مستهديا من

(*) على لسانها ردا على رسالته إليها المنوه بها آنفا .

(١) وقد اهتم بها الأدباء، فشرحها الأديب المصرى الكبير (جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة) المتوفى ام ٧٦٨هـ فى كتاب كامل سماه (سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون) راجعه فى طبعة (بولاق) أو طبعة (صبيح) .

صلتى ما سفرت معه أيدى أمثالك، متصديا من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك ...." •

ومنها :

"كلامك تمتمه،وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة[١]، وضحكك قهقهة، ومشيك هرولة، وغناك مسألة[٢]،ودينك زندقة، وعلمك مخرقة[٣]•

مَسَاوِئُ لو قُسِمْنَ على الغَـوَانِى ∴ لَمَـا أُمْهِـرْنَ إلاَّ بـالطلاقِ !!

حتى إن (باقلا) [٤] موصوف بالبلاغة إذا قرن بك، و(هبنقـة) [٥] مستوجب لاسم العقل إذا أضيف غليك، و(طويسا) [٦] مأثور عنه يمـن الطالع إذا قيس عليك، فوجودك عدم!، والاغتباط بك نـدم!، والخيبـة منك ظفر، والجنة معك سقر •

كيف رأيت لؤمك لكرمى وفاء؟! وضعتك لشرفى كفاء؟، وأنـى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها؟!، والطير إنما تقـع علـى ألافها؟! وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعـان؟!، وشـعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان؟، وقلت: الخبيث والطيـب لا يسـتويان؟! وتمثلت:

أَيُّهَا المُنْكِحُ (الثُّرَيّـا) (سُـهَيْلاً) ∴ عَمْرُكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتقِيَـانِ[٧]؟"!

---

(١) المراد عيه وعجزه عن الإفصاح •

(٢) تسول •

(٣) جهل وحمق•

(٤)(٥)(٦) باقل وهبنقة وطويس مضرب المثل عند العرب فى العـى والحمـق والشؤم•

(٧) الثريا: نجم مطلعه جهة الشام، وسهيل: نجم جهة (اليمن)•

وهى طويلة نكتفى منها بهذا القدر، وأسلوب هذه الرسالة الهزلية يختلف بعض الاختلاف عن أسلوب (الرسالة الجدية) التى نوهنا بهـا سابقا ــ فالأسلوب هنا ــ كما تراه ــ مسجوع كله ، والرسالة محـلاة بالسجع من أولها إلى آخرها، لكنه السجع المنتخب، والعذب المنتقـى، والسهل الممتنع والتناسق العجيب، والتجانس الغريـب، حتـى لكأنهـا الشعر المنثور، والدر المنضود، وقد أفرغ فيها من الأمثال شعرا ونثرا ما جعلها موسوعة أدب وتاريخ، وعلم وفن بالإشارة اللطيفة، واللمحـة الخفيفة، وقد بلغ فيها من خصمه غاية السخرية، وأوجع الهجاء، وألذع التهكم، وإنا وإن كنا معجبـين بهـذه الرسـالة مـن جهـة (الشـكل والصياغة)، وجانب البراعة الأدبية، فإننا من جهـة (المضـمون) لا نوافق (ابن زيدون) ــ غفر الله له ــ على هذه المبالغة الشـديدة فـى تحقير خصمه المسلم، ولا نقره على شغل وقته، واستغلال موهبته الفذة فى هذا الموضوع الشخصى التافه، الذى يبعده عما ينبغى لأمثاله مـن التفكير فى جلائل الأمور وما يهم أمته الأندلسية ويعيد لهـا وحـدتها (الممزقة) وشملها المبدد فى عهد (ملوك الطوائف) الذى عاش فيه هذا الشاعر الكاتب والوزير السياسى العالم.

٢- (ابن الشهيد) (١):

وهو الوزير الكاتب (أبوحفص عمر بن الشـهيد) أحـد كتـاب الأندلس فى القرن الخامس الهجرى، وهو من رجال (المعتصـم بـن

---

(١) هو غير (أبى عامر بن شهيد) الذى نوهنا به فى الشعراء راجع صـ١١١ من الكتاب.

صمادح) صاحب (المرية)، وكان فى كتابته ذا خيال خصب، ولفظ جزل وكان صاحب (مقامات) يحاكى فيها مقامات (المشارقة)، وهذه قطعة من إحدى مقاماته على لسان (الديك) :

"أيها السادة الملوك ... قد صحبتكم مدة، وسبحت الله تعالى على رؤسكم مرارا عدة، أوقظكم بالأسحار، وأؤذن بالليل والنهار، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا وربيت لكم من الفراريج أعدادا، فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى، أنعى إلى دجاجى ؟! وتنحى الشفرة على أوداجى؟! وحين أدركنى الشيخ، يمزق لحمى ويطبخ؟! يا للكرام من ذل هذا المقام!! وجعلت دموعه تسفح من دمه والحزن يطبق على فمه، ثم غشى عليه، فاجتمعت البداة إليه، يضربون وجهه بالماء، ويخلصون له فى الدعاء ثم آفاق من غشيته وأنشد:

عَلَامَ يُقْتَلُ شَيْخٌ ∴ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ بَرِىٌّ
مُحَقِّقٌ مُتَحَرٍّ ∴ مُوَحِّدٌ سُنِّىٌّ
هَلْ نَصَّ هذا كِتَابٌ ∴ أَوْ قَالَ هَذا نَبِىٌّ ؟؟
لَا ذنبَ لِى غيْرَ أَنِّى ∴ مؤذنٌ بَدَوِىٌّ .. الخ

التعليق :

ولعلك تلاحظ معى سهولة أسلوب ابن الشهيد، والتزامه السجع الخفيف، وجريه على نهج (بديع الزمان الهمذانى) فى مقاماته بتوخى العذوبة والطلاوة، وطرافة الموضوع، ولطف التخيل والاتجاه القصصى الجذاب.

٣ - ابن الآبار:

وهو (أبوعبدالله بن عبدالله القضاعى البلنسى) [*] المولـود عـام ٥٩٥هـ ، والمتوفى عام ٦٥٩هـ ، وتتلمذ على مشـاهير المحـدثين والأدباء فى عصره، وهو من أشهر من كتبوا عن الأندلس فى (القرن السابع) الهجرى، وهو صاحب كتاب (التكملة) وجعلـه ذيـلا لكتـاب (الصلة) (لابن بشكوال) [١] الذى هو بدوره ذيل لكتاب (تاريخ علمـاء الأندلس) لابن الفرضى[٢] وله أيضا (معجم الصدفى) [٣] و(تحفة القادم) وقد بدأ حياته كاتبا (لأبى عبدالله بن أبىحفص بن عبدالمؤمن بن على) حاكم (بلنسية) ثم لابنه (أبىزيد) ثم (لزيان بن مـردنيش) ثـم (لابـن أبىحفص) صاحب (إفريقية) ثم لابنه (المستنصر) وقد دس عليه بأنـه يهجوه فقتله.

قال رحمه الله يرثى (مدن الأندلس) التى وقعت فى يد النصارى:

"وأما الأوطان المحبب عهدها بحكـم الشـباب، المشـبب فيهـا بمحاسن الأحباب، فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد، وأخنى عليها الـذى أخنى على لبد، أين (بلنسية) ومغانيها؟ وأغاريد ورقها[٤] وأغانيها؟ أين

(*) نسبة إلى (بلنسية) بلدة فى شرق الأندلس عظيمة، وثغر من ثغوره المهمـة على البحر الأبيض المتوسط .

(١) هو (خلف بن عبدالملك) المتوفى عام ٥٧٨هـ.

(٢) هو عبدالله بن محمد الأزدى القرطبى المتوفى عام ٤٠٣هـ .

(٣) وهو تاريخ لأصحاب الإمام القاضى (أبى على الصدفى بن محمد بن سكرة) المعروف بابن الدراج والمتوفى سنة ٥١٢هـ .

(٤) الورق جمع ورقاء وهى الحمامة .

جداولها الطفاحة[١] وخمائلها، وأين جناتها النفاحة[٢] وشمائلها؟ ويا (لشاطبة) وبطحائها من حيف الأيام وإنحائها[٣] ووالهفاه ثم لهفاه على (تدمير) وتلاعها![٤]، و(جيان) وقلاعها! و(قرطبة)ونواديها! و(حمص) (إشبيلية) وواديها! .. كلها قد رعى كلؤها[٥]!، ودهى بالتفريق والتمزيق ملؤها[٦]، عض الحصار أكثرها!، وطمس الكفر عينها وأثرها، وتلك (إلبيرة) بصدد البوار[٧]!! و(رية) فى مثل حلقة السوار[٨]! وما لأندلس أصيبت بأشرافها؟ ونقصت من أطرافها؟ قوض عن صوامعها[٩] الأذان!! وصمت بالنواقيس فيها الآذان ! .. الخ.

التعليق:

ولا يخفى عليك ما فى هذه القطعة الباكية من الأسف والأسى، والحسرة والحرقة والجوى، على مدن الأندلس الزاهرة التى سقطت فى أيدى الأعداء، فذل عزيزها، وصوحت مغانيها، وأظلم نورها، ومحى سرورها، وأبدلت النواقيس بالأذان، ونصبت على مساجدها الصلبان، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) الطفاحة: الفياضة .
(٢) النفاحة: الفواحة بالطيب .
(٣) البطحاء والأبطح واد واسع فيه دقاق الحصى، والإنحاء: الإقبال باللوم. اللهف: الحزن والتحسر.
(٤) التلاع: جمع تلعة بسكون اللام : ما ارتفع من الأرض .
(٥) الكلأ : العشب.
(٦) الملأ : الجماعة.
(٧) البوار: الهلاك.
(٨) مثل يضرب للضيق.
(٩) مآذنها .

والقطعة مصوغة ــ كما هو واضح ــ بأسلوب السجع الذى فشا فى أواخر العصور الأندلسية، وأصبح من سـمات الكتابـة البـارزة، وصفاتها اللازمة٠

٤ـ لسان الدين بن الخطيب :

وهو (أبوعبدالله بن محمد بن عبـدالله بـن سـعيد الغرنـاطى) المعروف بلسان الدين بن الخطيب، وزيـر (بنـى الأحمـر) ملـوك (غرناطة)، وزر (لأبىالحجاج يوسف) من عظماء سلاطينهم ثم لابنـه من بعده، وكان سفيره إلى ملوك (إفريقية) يستنجد بهم علـى أعدائـه، وقد حسد ابن الخطيب كثير من معاصريه وسعوا لدى السلطان للإيقاع به، ففر إلى بلاد (المغرب) ولكن أعداءه تتبعـوه واتهمـوه بالخيانـة وبالزندقة، وما زالوا به حتى سجن وقتل فى سجنه رحمـه الله عـام ٧٧٦هـ٠

وقد كان (ابن الخطيب) وزيرا صاحب كفاية، وطبيبـا مـاهرا، وكاتبا شاعرا ومؤرخا فقيها، وله مؤلفات قيمة، وآثار بديعة خالـدة[1] قال من رسالة له يحض على الجهاد:

"أيها الناس ــ رحمكم الله تعالى ــ إخوانكم المسلمون (بالأندلس) قد دهم العدو ــ قصمه الله تعالى ــ ساحتهم ورام الكفر ــ أخـزاه الله

---

(١) من أهمها: (الإحاطة بأخبار غرناطة) وهو من المراجع النفيسة فى تـاريخ الأندلس بعامة ، ومملكة غرناطة بخاصة وعلمائها وسلاطينها وأدبائها ٠

تعالى ــ استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت[1] إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم.

وأنتم ــ بعزة الله تعالى ــ أقوى، وأنتم المؤمنـــون أهــل البـــر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجاركم القريب فلا تخفروه[2] . الجهاد الجهاد فقد تعين، الجار الجار، فقد قرر الشرع حقه وبين. الله الله فـــى الإسلام. الله الله فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، وقد تأكد عهـــد الله وحاشـــاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعـــالى عنـــد الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميل العوائد، أدركوا رمـــق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ... الخ.

التعليق:

هذه رسالة صارخة مستصرخة،وهى أشبه بالخطبة منها بالرسالة نظرا لموضوعها الحساس، و(ابن الخطيب) ــ وهو يعلم حجم المشكلة وخطورتها، وفظاعتها ومرارتها ــ يخاطب المسلمين، ويقصد أقـــربهم للأندلس، وهم أهل (المغرب) فيطلعهم على واقع إخوانهم الأليم، مـــن هجوم الأعداء المتربصين من نصارى(إسبانيا)على ما بقى من الأندلس الإسلامية، بقصد اجتياحها واستئصالها، والقضاء على ما بقى فيها من إسلام ومسلمين،ويناشدهم أن يهبوا لنصرة إخوانهم من أجل حقين لازمين:

---

(١) الطواغيت: كل من جاوز الحد وغلا فى الكفر، وأسرف فى الظلم، ورءوس الضلال، : مردة أهل الكتاب.

(٢) لا تنقضوا عهده.

حق الأخوة فى الدين، وحق الجوار، ويذكرهم بفريضة الجهاد وتعينها وبأن إغاثة المستغيث واجبة فكيف إذا كان المستغيث هو الإسلام؟ وأن الوفاء بالعهد فريضة فكيف إذا كان العهد عهد الله؟! ويجدد المناشدة بطلب العون مرغبا فى الثواب وما عند الله من جميل الأجر والمكافأة حاثا على المبادرة قبل فوات الفرصة وضياع الدنيا والدين.

(وأسلوب الرسالة) سهل، وهى (مسجعة) كلها، وسجعها حزين خاشع، وفيها الكثير من (الجمل الاعتراضية الدعائية) بالخير للمسلمين، وبالشر للكافرين، وفى الرسالة (تكرار) لبعض الألفاظ مثل (الله الله) و(الجار الجار) و(الجهاد الجهاد)، لمناسبتها للموضوع وأهميتها فى تقرير المعنى المطلوب، والهدف المأمول، وهو الإسراع بالنصرة، وأن يهب المخاطبون إلى النجدة، كذلك فيها تأكيد المعانى بتكرار الجمل المترادفة.

وعند هذا القدر نقف شاكرين المولى عزوجل على جميل توفيقه وإلهامه، وحسن تأييده وإنعامه، داعين أن ينفع سبحانه بهذه الدراسة قارئيها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

العبد الفقير لربه العظيم

د/ محمد عبدالمنعم محمد عبدالكريم العربى

الفهارس

أولا : فهرس المصادر والمراجع

١ - الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال: محمد عبدالله عنان ــ مطبعة مصر ١٩٥٦م٠

٢ - الأدب الأندلسى : عبدالجواد رمضان وحامد مصطفى ــ مطبعة الأزهر ١٩٥٢م٠

٣ - الأدب الأندلسى : عبدالعزيز سمك ٠

٤ - الأدب الأندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة: د/ أحمد هيكل ط / دار المعارف بالقاهرة ١٣٧٨هـ ــ ١٩٥٨م ٠

٥ - الأدب الأندلسى : موضوعاته وفنونه : د. مصطفى الشكعة ط. دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ٠

٦ - الأدب العربى فى الأندلس: د/ حسن جاد ود/ محمد عبدالمنعم خفاجة ــ المطبعة المحمدية بالقاهرة ٠

٧ - الأندلس : د/ عبدالعزيز سالم: مؤسسة دار الشعب بالقاهرة سلسلة (دائرة معارف الشعب) الكتاب رقم ٦١ ــ عام ١٩٥٩م٠

٨ - الإحاطة فى أخبار غرناطة : لسان الدين ابن الخطيب: تحقيق محمد عبدالله عنان ط. القاهرة عام ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م٠

٩ - الإسلام ونهضة الأندلس: أحمد مظهر العظمة ــ دار الجهاد بالقاهرة ١٩٥٩م٠

١٠ - البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف د/سعد شلبى ـ دار نهضة مصر ـ الفجالة ـ القاهرة ١٩٧٨م٠

١١ - الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية: الأمير شكيب أرسلان ـ المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٩٣٦م٠

١٢ - الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين: د/فوزى سعد عيسى ط.دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ١٩٧٨م٠

١٣ - الشوقيات : ديوان أحمد شوقى ـ مطبعة مصر بالقاهرة ب ت

١٤ - الأطلس العربى: وزارة التربية والتعليم بمصر ط٤ ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٩م ٠

١٥ - الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى: د.عبدالمنعم ماجد وعلى البنا ـ دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٦٠م٠

١٦ - إعجام الأعلام : محمود مصطفى ط. القاهرة ١٩٣٥م٠

١٧ - المجمل فى تاريخ الأندلس: عبدالحميد العبادى مطبعة السعادة بالقاهرة٠

١٨ - المسرحية الإسلامية فى مصر (رسالة دكتوراه) محمد عبدالمنعم محمد العربى (مخطوطة) ١٣٩٨هـ ـ ١٩٨٦م٠

١٩ - النوريات فى الشعر الأندلسى : مقداد رحيم: طبع بيروت دار عالم الكتب ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م٠

٢٠ - ابن حمديس الصقلى: حياته من شعره: د/سعد إسماعيل شلبى ــ ط مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٧٧م.

٢١ - ابن زمرك الغرناطى : سيرته وأدبه : د/ أحمد سليم الحمصى ط. دار الإيمان طرابلس ــ لبنان ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

٢٢ - ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه: د/ حسن جاد حسن المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م .

٢٣ - ابن زيدون: د/ شوقى ضيف ــ الكتاب (٥) من سلسلة نوابغ الفكر العربى دار المعارف ط١١ عام ١٩٨١م.

٢٤ - ابن عمار : ثروت أباظة. دار المعارف بمصر (سلسلة اقرأ).

٢٥ - تاريخ العرب فى الأندلس: حسن مراد. المطبعة الحديثة ١٩٣٠ .

٢٦ - دولة الإسلام فى الأندلس: محمد عبدالله عنان: لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٠م.

٢٧ - ديوان ابن زيدون ورسائله: شرح وتحقيق على عبدالعظيم ط دار نهضة مصر ــ الفجالة القاهرة ــ ب ت .

٢٨ - ديوان ابن سهل الإشبيلى .

٢٩ - ديوان ابن هانئ الأندلسى: مطبعة المعارف فى بيروت ــ لبنان ١٣٢٦هـ.

٣٠ - ديوان الومضات: د/ محمد عبدالمنعم العربـــى ط دار الأرقـــم بالزقازيق ١٤١٤هـــ ـــ ١٩٩٣م٠

٣١ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة : أبوالحسن على بن بســـام الشنترينى ط القاهرة ١٣٥٨هـــ ـــ ١٩٣٩م٠

٣٢ - رحلة الأندلس حديث الفردوس الموعود د/ حسين مـــؤنس ط القاهرة ١٩٦٤م٠

٣٣ - سرح العيون فى شرح الرسالة الهزلية لابن زيـــدون: جمـــال الدين بن نباته المصرى ـــ ط القاهرة ١٣٢١هـــ٠

٣٤ - العصر الذهبى للأدب العربى: د/ محمد عبـــدالمنعم العربـــى ط.توفيق بالقاهرة ١٤٠٣هـــ ـــ ١٩٨٣م٠

٣٥ - العقد الفريد: ابن عبدربه الأندلسى: تحقيق محمد سعيد العريان المكتبة التجارية ١٣٥٩هـــ٠

٣٦ - غابر الأندلس وحاضرها: محمد كـــرد علـــى ط: الرحمانيـــة بالقاهرة ١٣١٤هـــ ـــ ١٩٢٤م٠

٣٧ - غرناطة وآثارها الفاتنة : د. عبـــدالرحمن زكـــى ط الهيئـــة المصرية انعامة للكتاب ١٩٧١م٠

٣٨ - الفن العربى فى إسبانيا وصقلية: المستشرق الألمانى فون شاك ترجمة د/ الطاهر أحمد مكى : دار المعـــارف ١٤٠٠هـــ ـــ ١٩٨٠م٠

٣٩ - في الأدب الأندلسي د. جودت الركابي ط . دار المعارف — مصر ١٩٨٠م٠

٤٠ - القاموس المحيط: مجدالدين الفيروزابادى ط . دار المأمون بالقاهرة ١٣٥٧هـ — ١٩٣٨م٠

٤١ - قصر الحمراء: د. محمد عبدالعزيز مرزوق ط دار القلم بالقاهرة ١٩٦٣م٠

٤٢ - قصة الأدب فى الأندلس: د. محمد عبدالمنعم خفاجة المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٩٥٦م٠

٤٣ - المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية د/ سعيد عبدالفتاح عاشور ١٩٦٣م٠

٤٤ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس لأبىنصر الفتح بن خاقان الإشبيلى: دراسة وتحقيق محمد على شوابكة — دار عمار مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م٠

٤٥ - المعتمد بن عباد: د/ عبدالوهاب عزام ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩م ٠

٤٦ - معجم البلدان: ياقوت الحموى ط بيروت ١٣٩٩هـ٠

٤٧ - المغرب فى حلى المغرب: أبوسعيد المغربى تحقيق د/شوقى ضيف : دار المعارف ط(٣) ١٩٨٠م٠

٤٨ - المفصل فى تاريخ الأدب العربى: أحمد الإسكندرى وآخـــرون مطبعة مصر ١٣٥٣هـــ ـــ ١٩٣٤م٠

٤٩ - المقدمة: عبدالرحمن بن خلدون ـــ ط المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة٠

٥٠ - المنتخب من أدب العربى: طه حسين وآخرون ـــ مطبعـــة دار الكتب المصرية ١٣٥٣هـــ ـــ ١٩٣٤م٠

٥١ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى (مطبوعات دار المأمون) القاهرة ١٣٥٥هـــ ـــ ١٩٣٦م٠

٥٢ - الوجيز فى أدب العصر الأموى : د/ محمد عبدالمنعم العربـــى ط غريب بالزقازيق ١٩٨٣م٠

٥٣ - الوسيط فى تاريخ الأدب العربى: أحمد الإسكندراى ومصطفى عنانى القاهرة مطبعة الاستقامة ١٩٢٨م٠

٥٤ - وفيات الأعيان : شمس الدين أحمد بن محمد بـــن خلكـــان ط القاهرة ١٣١٠هـــ٠

٥٥ - يتيمة الدهر: أبومنصور عبدالملك بن محمـــد الثعـــالبى طبـــع مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٦٦هـــ ـــ ١٩٤٧م٠

٥٦ - يليان فى الأندلس (قصة) : أحمد عبدالمنعم الحلوانى القـــاهرة ١٩٣٩م٠

ثانيا : فهرس الشعر بحسب وروده فى الكتاب

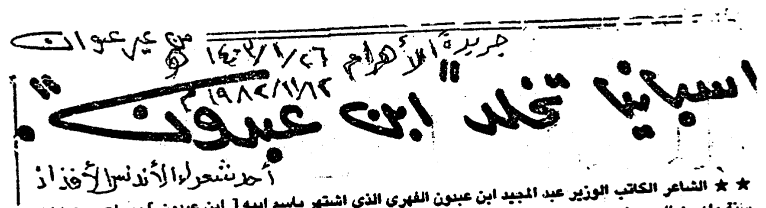
تابع : فهرس الشعر

تابع : فهرس الشعر

تابع : فهرس الشعر

ثالثا : فهرس الخرائط والمصورات

فهرس الموضوعات



جريدة الأهرام ٢٦/١/١٤٠٣هـ ١٩٨٢/١١/١٣م من غير عنوان

اسبانيا تخلد ابن عبدون

أحد شعراء الأندلس الأفذاذ

★ الشاعر الكاتب الوزير عبد المجيد ابن عبدون الفهري الذى اشتهر باسم ابيه [ابن عبدون] ومـات مـن ٨٤٨
سنة وله من العمر ٨٤ سنة .. كان الموضوع الاساسي الذى دارت حوله ابحاث المؤتمر الـ ١١ للمستشرقين والمهتمين
بالشئون الاسلامية الذى اقيم فى مدينة ايفورو باسبانيا وحضره علماء وباحثون من ١٤ دولة اوروبية وعربية بينها مصر .
فقد مثلها فى المؤتمر الدكاترة يوسف شوقى وعبدالعزيز سالم وصلاح فضل ، فضلا عن أن ميدالية المؤتمر وكانت
لابن عبدون صممها الفنان المصرى المهاجر الذى اتخذ من اسبانيا مستقرا : لويس فلسطين ، وقد اقام المؤتمر جناحا
لميداليات من تصميمه العديد منها عن شخصيات عربية اندلسية وبرتغالية .
تناولت بعض ابحاث اعضاء المؤتمر نشأة ابن عبدون منذ مولده فى بلدة بيابرة بالاندلس ودراسته للادب والحديث
والتاريخ والدور الذى قام به لتاييد دولة بنى الافطس بالاندلس ثم اتصاله بالمرابطين .. وقد نال شهرة مدوية كشـاعر
بعد ان قال قصيدته التى يرثى بها ملك بنى الافطس وتسمى (البسـامة) وقـد تـرجمت الى اللغتين الفـرنسية
والاسبانية وبين مايقوله فيها :

أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ لا آلوكَ مَوْعِظَةً
عن نَوْمَةٍ بينَ نابِ الليثِ والظُّفُرِ
فلا تَغُرَّنْكَ مِنْ دنياكَ نَوْمَتُها
فما صناعةُ عينيها سِوى السَّهَرِ
ما لليالي أَقالَ اللهُ عَثْرتَنا
مِنَ الليالي وخانَتْها يدُ الغِيَرِ
تَسُرُّ بالشيءِ لكنْ كي تَغُرَّ بِهِ
كالأَيْمِ ثارَ إلى الجاني مِنَ الزَّهَرِ

صورة متخيلة (لابن عبدون)
على هيئة (ميدالية) تذكارية

تفسير بعض الكلمات :

لا آلوك : لا أقصر فى أمرك ، أقال الله عثرتنـا: نجانـا وأخـذ بأيدينا ، الغير: المصائب ، الأيم: الثعبان.

التعليق :

... أخيرا، وبعد أكثر من خمسمائة عام من الكارثـة الفاجعـة، والجرائم الوحشية والمآسى الإنسانية التى انتهت بزوال دولة الإسـلام من الأندلس خفت حدة التعصب المقيت عند الإسبان ، وبدأ عقلاؤهـم يحسون بعظمة (الحقبة الإسلامية) فى تاريخهم، وأنها كالدرة المتألقـة فى هذا التاريخ، وأخذوا يُخَلِّدون ــ مفتخرين ــ بعض عظمـاء هـذا التاريخ (كابن حزم) و(ابن زيدون) ، و(ابن عبدون) كما ترى فى هـذا الخبر الذى نشرته صحيفة الأهرام القاهرية منذ أعوام وأحببنا أن ننقله إلى القارئ الكريم ربطا للماضى بالحاضر، والله المستعان

((المؤلف))

للمؤلف :

أولا) الكتب المطبوعة :

أ - سلسلة تاريخ الأدب العربى (سبع حلقات):

١ - فى العصر الجاهلى ٠ ٢ - فى عصر صدر الإسلام٠

٣ - فى العصر الأموى٠ ٤ - فى العصر العباسى الأول٠

٥ - فى العصر العباسى الثانى ٠ ٦ - فى الأدب الأندلسى٠

٧ - فى العصر الحديث ٠

ب ـ فى النقد الأدبى والتراجم والنصوص :

١ - من قضايا النقد الأدبى فى القديم والحديث ٠

٢ - شاعر يرثى نفسه (مالك بن الريب التميمى)٠

٣ - (الطغرائى) ولاميته المشهورة (لامية العجم)٠

٤ - مقتطفات من بستان العصر الذهبى ٠

جـ ـ فى البحوث :

١ - البحث الأدبى: مفهومه ومقوماته ـــ مناهجه وتطبيقاته ٠

٢ - العلمانية: منشؤها ومفهومها، وموقف الإسلام منها ٠

د ـ فى الإبداع الأدبى:

١ - ديوان (الومضات)٠

٢ - مسرحية (هرقل عظيم الروم) شعرية تاريخية طويلة٠

٣ - مسرحية (النجاشى ملك الحبشة) نثرية تاريخية طويلة٠

٤ - مسرحية (جوار الله) نثرية تاريخية قصيرة ٠

٥ - مسرحية (الأبطال شعرية قصيرة (للمسرح المدرسى)٠

ثانيا : (تحت الطبع) :

١ - ديوان اللمحات .

٢ - مسرحية (الخنساء) نثرية طويلة .

٣ - تاريخ المسرح الإسلامى والمسرحية الإسلامية .

٤ - من أدب المسرحية الإسلامية: عرض وتحليل ونقد.

٥ - قضايا ومشكلات فى المسرحية الإسلامية والمسرح الإسلامى.

٦ - الاتجاهات العلمية فى شعر (أبىالعلاء المعرى)

أ - الاتجاهات الفلكية .

٧ - من شعر المعارضات فى الأدب العربى

أ - العصر الحديث